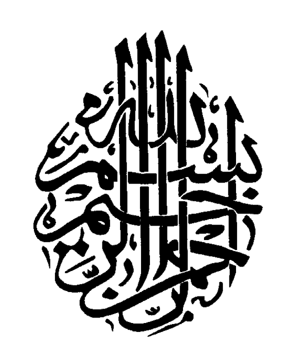


تأليف
صلاح الدين محمود السعيد

الناشر
دار البيان العربي



قصص الأنبياء

للأطفال

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

اسم الكتاب : قصص الأنبياء للأطفال

اسم المؤلف : صلاح الدين محمود السعيد

مقاس الكتاب : ١٧ x ٢٤

عدد الصفحات : ١٠٤ صفحة

عدد الأجزاء : جزء واحد

رقم الإيداع : ٢٢٦٠٧ / ٢٠٠٦ م



دار البيان العربي

الأزهر / درب الأتراك ت: ٥١١٨٠٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ .

(آل عمران: ١٠٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ .

(النساء: ١)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٧٠، ٧١).

أما بعـد:

فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار.

أحبائى الكرام ستقرءون فى هذا الكتاب **(قصص الأنبياء للأطفال)** سيرة خير الناس، وأطهر الناس سيرة، من اصطفاهم الله على سائر الخلق، فخذوا من قصصهم العبرة والعظة، ففقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (يوسف: ١١١) .

وأسأل الله عز وجل أن ينفعنى والمسلمين به، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أبو أنس

صلاح الدين محمود السعيد

آدم عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠).

خلق الله الأرض فى يومين وجعل فيها رواسى من فوقها (أى جبال) وبارك فيها وقدر فيها أقواتها (أى أرزاق أهلها ومعايشهم وما يصلحهم) فى أربعة أيام سواء للسائلين، ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض: ائتيا طوعًا أو كرهًا، قالتا: أتينا طائعين.

ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى، ثم خلق ملائكته الذين يسبحون بحمده ويقدسون اسمه ويخلصون فى عبادته، ثم شاءت إرادته واقتضت حكمته أن يخلق آدم وذريته ليسكنوا الأرض ويعمروها، فأنبأ ملائكته أنه سينشئ خلقًا جديدًا يسعون فى الأرض ويمشون فى مناكبها وينتشر نسلهم فى أرجائها، فيأكلون من نبتها ويستخرجون الخيرات من باطنها ويخلف بعضهم بعضًا فيها، والملائكة خلق اصطفاهم لعبادته وأسبغ عليهم نعمته وحباهم بفضله ووفقهم إلى رضاه وهداهم إلى طاعته، فساءهم أن يخلق الله خلقًا غيرهم، وخافوا أن يكون ذلك لتقصير وقع منهم أو لمخالفة وقعت من أحدهم، وأسرعوا إلى تبرئة أنفسهم وقالوا: كيف يا رب تخلق غيرنا ونحن دائبون على التسبيح بحمدك وتقديس اسمك! على أن هؤلاء الذين تستخلفهم فى الأرض لا بد سيختلفون على ما فيها من منافع ويتجاذبون ما بها على ما فيها من منافع، ويتجاذبون ما بها أنهم خيرات فيفسدون فيها ويسفكون الدماء ويزهقون الأرواح الطاهرة البريئة.

قالوا ذلك رغبة فيما يزيل شبهتهم وينزع الوساوس من صدورهم، فأجابهم الله بما اطمأنت له قلوبهم، قال: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ (الحجر: ٢٩) سوَّى الله آدم من طين ثم نفخ فيه من روحه فسرت فيه نسمة الحياة وصار بشرًا سويًّا.

ثم أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم فاستجابوا خاضعين وأقبلوا عليه معظمين وعفروا جباههم له ساجدين، إلا إبليس، فقد خالف أمر ربه وانحاز إلى معصيته وأبى واستكبر وكان من الكافرين، فسأل الله إبليس ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ (سورة ص: ٧٥).

فقال إبليس: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾.

فجازاه الله على عصيانه وعاقبه على مخالفته وناداه قائلاً له: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (سورة ص: ٧٧، ٧٨).

وسأل إبليس ربه ينظره (يمهله) إلى يوم الدين وأن يمد له في الحياة حتى يوم البعث.

فأجاب الله سؤاله وقال له: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾.

(سورة ص: ٨٠، ٨١)

ولما استجيب سؤاله وتحققت رغبته لم يشكر لله فضله، بل قابل النعمة بالكفران والفضل بالجحود والنكران، وقال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الأعراف: ١٦) لأغويهم وأضلهم ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٧).

طرد الله إبليس من رحمته وأمهله وقال له: امض لسبيلك الذى اخترته وسر فى طريق الشر الذى أردته ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ﴾ (الإسراء: ٦٤) الوعود الكاذبة، ولكنى لن أخلى بينك وبين من صحت عقيدتهم وقويت عزيمته من عبادى المخلصين.

ولن أجعل لك عليهم سلطانًا، أما ما عزمته من إغواء الناس وفتنتهم فحسابك عليه عسير ولأملأن جهنم منك ومن أتباعك.

وعلَّم الله آدم أسماء الكائنات كلها ثم عرض هذه الكائنات على الملائكة وقال لهم: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة: ٣١) ليظهر عجزهم وقصور علمهم ويعرفوا أن حكمة الله قد اقتضت أن يكون آدم أعلم منهم بما أفاض الله عليه من نوره.

﴿قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ٣٢) وأمر الله آدم أن ينبئهم بما عجزوا عن معرفته وخبرهم بما قصرت مداركهم عن علمه بيانًا لفضله وإظهارًا لحكمة استخلافه فى الأرض، وقد كان وأخبرهم خليفة الله بما عجزوا عنه فناداهم ربهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٣) ثم أقبل الله على آدم فأسكنه وزوجه الجنة وأوحى إليه أن اذكر نعمتى عليك فإنى خلقتك ببديع فطرتى وسويتك بشرًا على مشيئتى ونفخت فيك من روحى وأفضت عليك قبسًا من علمى وجعلت الملائكة تسجد لك.

وهذا إبليس قد أيأسته من رحمتى ولعنته حين خرج عن طاعتى، وها هى ذى الجنة – دار الخلد ــ جعلتها لك منزلاً ومقامًا.

فإن أطعت كافأتك بالإحسان وخلَّدتك فى الجنان، وإن تركت عهدى أخرجتك من دارى وعذبتك بنارى. ثم لا تنس أن إبليس هذا عدو لك ولزوجك سيحاول غوايتكما وإخراجكما من الجنة فتشقى.

وأباح الله لآدم وزوجه أن يأكل من ثمار أشجار الجنة كلها حيث شاءا، إلا شجرة واحدة نهاهما عنها.

قال له: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (البقرة: ٣٥) .

ووعد الله آدم وزوجه أن يمد لهما فى أسباب النعيم إن اجتنبا الشجرة التى نهاهما عنها، فلا يمسهما فى الجنة الجوع والعرى ولا ينالهما ظمأ ولا نصب.. قال: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ (طه:١١٨، ١١٩) .

لا تضحى: لا يؤذيك حر الشمس.

وسكن آدم الجنة وصار يتمتع بما فيها من كل ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين، وشاركته هذه المتعة زوجه، وعاشا كذلك مدة ينهلان من مناهل السعادة.

وحز ذلك فى نفس إبليس وعز عليه أن ينعم آدم وزوجه وهو مطرود من رحمة الله مبعد عن جنته، فعقد العزم على أن يقوض عرش السعادة والنعيم الذى يرفلان فيه، فدلف إلى الجنة وحدَّث آدم فى سر وخفاء وأوهمه بأنه مخلص فى وده صادق فى

نصحه قال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ (الأعراف: ٢٠).

ولما وجد من كل من آدم وزوجه إعراضًا وآذانا غير راغبة فى سماع صوته أقسم لهما بأنه من الناصحين ولا يقصد إلى ضررهما ولا يريد النكاية بهما.. ولما لم يستجيبا له حاول إغراءهما بطيب ريح تلك الشجرة وبديع طعمها وحسن لونها فاغترا بقوله وافتتنا بزخرف لفظه ومعسول خطابه، واتبعا مشورته واستجابا لإغوائه وأكلا من تلك الشجرة التى نهاهما الله عنها.

فناداهما الله ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (الأعراف: ٢٢).

آذاهم الشيطان إذن... وندما على فعلتهما ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٣) وغفر الله لهما زلتهما وتاب عليهما فأثلج ذلك صدرهما وقرت به عينهما، وانبثق الأمل فى نفسيهما بالبقاء فى الجنة والتمتع بنعيمها، إلا أن الله كان قد قضى عليهما بالخروج من الجنة والهبوط إلى الأرض، قال: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ (طه: ١٢٣).

وبذلك انتهى طور النعيم الخالص والراحة التامة التى كانا ينعمان بها فى الجنة ودخلا فى طور جديد لهما فيه طريقان: طريق الهدى، وطريق الضلال، طريق الإيمان وطريق الكفر.. طريق الفلاح وطريق الخسران، فمن اتبع هدى الله الذى شرعه وسلك الصراط المستقيم الذى حدده فلا خوف عليه من وسوسة الشيطان وإغوائه، ومن أعرض عن ذكر الله وحاد عن سبيله فسيكون عيشه ضنكا وسيكون من الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

إدريس عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ (مريم: ٥٦) ونبينا إدريس، عليه السلام، هو أول من أُعطى النبوة من بنى آدم بعد آدم عليه السلام.

وهو ممن علا شأنهم عند الله مصداقًا لقوله: ﴿وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (مريم: ٥٧).

وقد مر به رسولنا الكريم محمد ﷺ وهو فى رحلة المعراج فى السماء الرابعة، كما ورد فى صحيحى البخارى ومسلم.

ويقول ابن إسحق ﷺ: إنه أول من خط بالقلم.

وقد كان للمكانة العظيمة والنبوة التى اختصه الله بها أثرها فيمن عايشوه وخالطوه من بنى آدم.

هدى الناس إلى الله.. وعلمهم الكتابة.. وملأ قلوبهم بالحكمة.. وفتح عيونهم على آثار نعمة الله عز وجل.

وعلمهم كيف يعبرون على آثار نعمة الله عز وجل وعلمهم كيف يعبدون الله ويعبرون له عن شكرهم، وظل الناس بعده يتوارثون حكمته ووصاياه حتى أرسل الله نوحًا عليه السلام، فحمل لواء النبوة من بعده، وقال للناس إنى رسول الله إليكم.. أبلغكم رسالة ربى.

نوح عليه السلام

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف: ٥٩)

فى الزمان البعيد، كان يعيش على الأرض مع من يعيش عليها من الناس، خمسة رجال صالحين وهم: (ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر) وكان الناس يحبونهم حبًّا شديدًا. ويهتدون بهدايتهم، ولما مات أولئك الرجال الصالحون حزن الناس عليهم لفراقهم حزنًا شديدًا، واقترح أحدهم أن يصنعوا لهم تماثيل تذكر الناس بهم، فأعجبتهم الفكرة ونفذوها.

ومرت الأعوام، ومات الآباء والأجداد، وجاء جيل من وراء جيل، ونسى الناس أن تلك التماثيل مجرد ذكرى للصالحين، وأغواهم الشيطان، فجعلهم يتقربون إليها تبركًا بأصحابها، وشيئًا فشيئًا عبدوها، وتركوا عبادة الله.

فأرسل الله سبحانه وتعالى إليهم نبيًّا منهم هو نوح (عليه السلام) ليخرجهم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، وحذر نوح قومه قائلاً لهم:

﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

واستمر يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة ليراجعوا كفرهم ويتركوا عبادة الأصنام، ويعبدوا الله وحده لا يشركون به شيئًا.

وأخذ نوح يقدم لهم الأدلة على صدق دعوته، ويلفت أنظارهم إلى ما فى الكون من دلائل قدرة الله ووحدانيته، فيقول لهم:

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ (نوح: ١٣: ٢٠)

فاستجاب عدد قليل من أصحاب العقول الراجحة، وظل باقى قومه على ضلالهم وشركهم بالله، وكذبوه وقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون: ٢٤)

ودعوا الناس إلى التمسك بالشرك والضلال، وقالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (نوح: ٢٣)

وصبر نوح، واستمر يدعو قومه إلى الله ليلاً ونهارًا... سرًّا وعلانية، وكان يحببهم فى طاعة الله ويرغبهم فيما عنده من الخير الوفير، فيقول لهم: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ (نوح: ١٠- ١٢)

فقالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ (هود: ٢٧)

وهددوه هو والذين آمنوا معه بالقتل... قالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ (الشعراء: ١١٦)

ولم يخش نوح والذين آمنوا معه من تهديدات الكافرين بل زادتهم إيمانًا، واستمر نوح يدعوهم تسعمائة وخمسين عامًا.

وظل يحذرهم من عذاب الله فلم يؤمن به إلا جماعة قليلة أما أكثرهم فقد ضاقوا به وبدعوته، وقالوا له: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (هود: ٣٢).

فحزن نوح من جرأتهم على الله، وتعجب من استعجالهم العذاب وظل يدعوهم، حتى جاءه الوحى: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ (هود: ٣٦) ورضى نوح بقضاء الله وقدره، وأيقن أن مشيئته نافذة، فرفع يديه إلى السماء، ودعا ربه قائلاً: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (نوح: ٢٦، ٢٧) فاستجاب الله سبحانه وتعالى لدعاء نبيه، وأمره أن يصنع سفينة كبيرة، ثم يجمع فيها من كل شىء زوجين اثنين: من الطيور، والحيوانات، ومن كل الكائنات، ثم يركب السفينة هو والذين آمنوا معه، فاستجاب نوح لأمر ربه، وبدأ هو والذين معه فى صنع السفينة.

وكلما مر عليهم الكافرون استهزؤوا بهم وسخروا منهم، وتعالت ضحكاتهم من أولئك الذين يصنعون سفينة على أرض ليس بها بحر ولا نهر.

وكان نوح يقول لهم كلما سخروا منه: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (هود: ٣٨).

ولما حانت ساعة العذاب، وضع نوح فى السفينة كل الأزواج التى جمعها، ونادى أهله ومن آمن به، قائلاً: ﴿ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِٰهَا وَمُرْسَٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (هود: ٤١).

وصدر أمر الله سبحانه وتعالى إلى السماء والأرض لتخرجا ماءهما، فنزلت الأمطار من السماء، وتفجر الماء من الأرض، وارتفع الماء رويدًا حتى تعالت أصوات المستغيثين.

وكان ابن نوح من بين الذين لم يؤمنوا بالله، ورآه نوح وهو يخوض فى الماء مسرعًا، يبحث عن شيء يحتمى به، فناداه: ﴿ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (هود: ٤٢) .

لكن تمسك بكفره، وشركه وقال: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾.

(هود: ٤٣)

فقال له أبيه: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ (هود: ٤٣).

وهاجت الأمواج العالية، وأخذت معها الابن العاق لتغرقه، فدعا نوح ربه: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ (هود: ٤٥).

فجاء الجواب سريعًا من المولى عز وجل: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (هود: ٤٦).

فرضى نوح بقضاء الله، وقال معتذرًا: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (هود: ٤٧).

عند ذلك صدر الأمر الإلهى إلى السماء والأرض: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ (هود: ٤٤).

فقل الماء تدريجيًا حتى رست السفينة على الأرض، فقال الله سبحانه وتعالى، مخاطبًا نبيه: ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ (هود: ٤٨).

وهكذا نجى الله سبحانه وتعالى نوحًا والذى آمنوا معه وأغرق الكافرين.

هود عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: ٦٥).

(عاد) هى إحدى قبائل العرب، فى الزمن القديم، وكانت تستوطن (الأحقاف) وهى موضع جنوب جزيرة العرب بين اليمن وعُمان، أنعم الله عليهم بالخير الكثير، فتفجرت فى أرضهم عيون الماء، تسقى زرعهم وحرثهم، كما تسقى أنعامهم.. مما جعل بلادهم جنة من جنات الله فى الأرض.

ولقد آتاهم الله ما لم يؤت أحدًا من العالمين، وزادهم بسطة فى الجسم وصحة فى البدن.

ومع ذلك نسوا الخالق المنعم، واتخذوا لهم أصنامًا يعبدونها ويقدمون لها القرابين.

فكان لا بد أن يبعث الله إليهم رسولاً من أنفسهم يحدثهم بعد أن ظلموا أنفسهم واغتروا بقوتهم وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

لقد نسوا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو القوى، وهو ملك الملوك، وأنه أشد منه قوة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ (فصلت: ١٥).

ولأن الأنبياء جميعًا يتحلون بالحلم والصبر، فقد تحمل نبى الله (هود) عليه السلام، أذاهم وصبر على ما يقولون وعلى كفرهم بالله، أملاً فى أن تتفتح قلوبهم لكلامه، وتصغى آذانهم لنصحه وإرشاده، فيهتدون.

ونبى الله لا يريد منهم جزاءًا ولا شكورًا، بل ينصحهم لوجه الله.

إلا أنهم أصروا على عنادهم وعلى كفرهم، وأخذتهم العزة بالإثم... وتجاهلوا كل الحجج والبراهين التى تدل على صدق نبيهم (هود) عليه السلام، وعلى وجود الله الذى يستحق العبادة بغير شريك، وقالوا له: ﴿يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: ٥٣).

ولقد تعجبوا أن يكون النبى بشرًا مثلهم، بل واحدًا منهم يأكل مما يأكلون، ويشرب مما يشربون، ويعدهم بالبعث بعد الموت.

ويخبرنا الله فى القرآن الكريم، عما دار بينهم من حديث فيقول: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (المؤمنون: ٣٣ - ٣٨) .

ورد عليهم هود (عليه السلام) قـائلاً: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (الشعراء: ١٤٣، ١٤٤) .

ولكنهم أبوا إلا أن يكذبوه، بل سخروا منه قائلين: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ (الأعراف: ٦٦) .

فرد عليهم وقال: ﴿يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (الأعراف: ٦٨) .

وكان هود عليه السلام ككل الأنبياء والمرسلين الذين اصطفاهم الله وفضّلهم، قمة فى الخلق الرفيع وغاية فى الحلم والصبر والتسامح، والتلطف فى إسداء النصح ولكنهم أمعنوا فى ضلالهم وكفرهم بالله، وقالوا: إنما أصابه ما أصابه لأن بعض آلهتنا قد اعتراه بسوء حين عابها.

وعاد هود عليه السلام يحذرهم وينذرهم وينصحهم قائلاً: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف: ٥٩) .

فقالوا له: وقد ازدادوا عنادًا وكفرًا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ (الأعراف: ٧٠) .

فأجابهم إجابة حاسمة وقال: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ (الأعراف: ٧١) .

وبدأت مقدمات العقاب الإلهى، والعذاب الربانى، حيث امتنع سقوط المطر، فمات الزرع وجف الضرع، بعدها أصابهم قحط شديد.

وخرجوا يستغيثون ويتطلعون إلى السماء علهم يلمحون سحابًا يبشرهم بنزول المطر، وبالفعل رأوا سحابة سوداء قادمة نحوهم من بعيد فاطمأنوا وتهللوا وظنوا أن قحطهم سيزول قريبًا، ولكن فرحتهم سرعان ما تبددت، إذ لم تكن تلك السحابة تحمل مطرًا، وإنما كانت ريحًا عاصفة، عصفت بهم سبع ليال وثمانية أيام، ودمرت كل شيء، وبم تترك منهم أحدًا حيًّا.

قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ (الأحقاف: ٢٥) .

أما هود ومن آمن معه فقد نجاهم الله من ذلك العذاب، فلم يصبهم ما أصاب الكافرين.

* * *

صالح عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (هود: ٦١).

بعد (هود) عليه السلام، قاد قافلة الإيمان ودعوة التوحيد (صالح) عليه السلام.

وكما أرسل (هود) عليه السلام إلى (عاد) وكان ما كان شأن معها، ومآلها الذى آلت إليه، وعرفناه فى القصة السابقة.

أرسل الله (صالحًا) إلى (ثمود) ليدعوهم، إلى عبادة الله ولا يشركوا به أحدًا.

ومثلما كانت (عاد) إحدى قبائل العرب، فثمود أيضًا كانت إحدى القبائل العربية، وكانت تستوطن موضعًا فى شبه الجزيرة العربية، قريبًا من ساحل البحر الأحمر.. بين الحجاز والشام.

وقد جعلهم الله خلفاء من بعد عاد... وبوَّأهم فى الأرض يتخذون من سهولها مزارع ومراع، وينحتون فى جبالها لها بيوتًا وقصورًا.

وأنعم الله عليهم بنعم كثيرة... فالأرض خصبة، والمياه وفيرة، ومن حولهم المروج الخضر والنخيل.

إلا أن إبليس كان لهم بالمرصاد، وأغراهم بعبادة الأصنام واتخاذها آلهة من دون الله.

ولم يتركوا منكرًا إلا فعلوه، ولا ذنبًا إلا اقترفوه، حتى أصبحت حياتهم كلها شرورًا وآثامًا.

ولما كان الله ــ سبحانه وتعالى ــ لا يعذب أحدًا، أو يغضب على قوم أشركوا به، إلا بعد أن يرسل إليهم رسولاً كما يقول فى كتابه الكريم: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء: ١٥).

فإنه لم يشأ أن يعذبهم حتى يبعث إليهم رسولاً منهم، فإن خالفوه وعصوا استحقوا العذاب.

من أجل هذا أرسل الله إليهم رسوله (صالحًا) عليه السلام، الذى دعاهم إلى عبادة الله الواحد الأحد، وترك عبادة الأصنام... وذكَّرهم بنعمة الله قائلاً: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ (الأعراف: ٧٤).

لكنهم لم يذكروا نعم الله وفضله عليهم، ولم يشكروه على أن أرسل إليهم رسولاً منهم يهديهم إلى الصواب، ويبلغهم رسالة ربه حتى يرضى عنهم، ولا يعذبهم.

وقالوا له: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾.

(هود: ٦٢)

فرد عليهم صالح عليه السلام قائلاً: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الشعراء: ١٤٣ - ١٤٥).

ولما تمادوا فى طغيانهم، واستمروا فى عصيانهم، أخذ يحذرهم قائلاً: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (الشعراء: ١٤٦ - ١٥٠).

فقالوا له: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

(الشعراء: ١٥٤)

وسألهم صالح، عليه السلام: ماذا تريدون؟.

فطلبوا منه أن يأتيهم بناقة!... ناقة تخرج من بين صخور الجبل ليست ملكًا لأحد، وليست من سلالة جمالهم ونوقهم، متميزة عن غيرها من النوق!.

ودعا صالح، عليه السلام، ربه، أن يأتيه بما طلبوا، أملاً فى أن يكفوا عن عنادهم، ويعودوا إلى رشدهم.

وأجاب الله دعاءه... فإذا الناقة بين أيديهم، وإذا هى أجمل وأبهى من كل ما لديهم من نوق.

وقال لهم صالح (عليه السلام): ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الأعراف: ٧٣).

أما الماء فهو قسمة بينكم وبينها... لا تشاركوها فى يومها، ولا تشارككم فى يومكم.

﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (الشعراء: ١٥٥)

... ومال كثير من المستضعفين، وقليل من الأشراف إلى الإيمان بالله، بعدما رأوا الآية...

إلا أن الشيطان كان لهم بالمرصاد، فأغرى الذين استكبروا منهم والأشرار، وسلطهم على الناقة، فرماها أحدهم بسهم، وأسرع آخر، ليجهز عليها بسيفه.

وأسرع بعضهم إلى صالح (عليه السلام) يقول له فى صلف وغرور:

لقد عقرنا الناقة... فأين العذاب الذى أنزرتنا به؟ فقال لهم صالح عليه السلام: إن وعد الله حق، إن عذابه لواقع ما له من دافع! وتولى عنهم وهو يقول: ﴿ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ (الأعراف: ٧٩).

ونظر القوم بعد أن تولى عنهم صالح (عليه السلام) هو ومن آمن معه، فإذا صاعقة شديدة مصحوبة بصوت عظيم وزلزال مدمر يقضى عليهم وعلى كل أثر لهم.

قال الله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ (النمل: ٥١ - ٥٣).

* * *

قصة خليل الرحمن

إبراهيم عليه السلام

فى أرض العراق كانت هناك مدينة جميلة عالية البنيان قوية الحصون يسكنها قبائل مختلفة من البشر.

يشربون من مائها ويأكلون من ثمار حدائقها، وبدلاً من أن يوجهوا شكرهم إلى الله على هذه النعم عبدوا الأصنام، كسالفيهم من القبائل التى أهلكها الله مثل عاد وثمود.

كان أهل بابل أشداء فى الكفر عتاة ظالمين، وملكهم كان النمرود الذى يملك معظم الأرض، مثله فى ذلك ذو القرنين وبختنصر.

كان البابليون يعبدون الأصنام ويبيعونها فى الأسواق وكان الكثير منهم يصنعها فى بيته ثم يذهب بها إلى السوق ليربح من ورائها المال الوفير.

فواعجبًا لآلهة تُصنع بأيدى البشر وتُباع فى الأسواق.

كان تارح ـ والد إبراهيم عليه السلام ـ مشهورًا فى المدينة بصنع التماثيل والتجارة فيها.

عندما كان إبراهيم صغيرًا ينادى عليه والده: تعال يا إبراهيم.

فيلبى إبراهيم: نعم يا أبت، ماذا تريد منى؟.

أريد أن تحمل هذه الأوثان وتذهب بها إلى السوق.

يا أبت إننى أكره هذه الأحجار.

يا ولدى نحن نربح من ورائها أموالاً طائلة، يأخذ إبراهيم الأصنام إلى السوق وهو يقول: من يشترى أصنامًا لا تنفع ولا تضر.

فلما سمعه الناس كرهوا ذلك القول أشد الكره، وأصابهم الفزع جراء سب أصنامهم من قبل ذلك الفتى الجميل الذى لم يكف عن ذكر آلهتهم الحجرية إلا بسوء.

رأى إبراهيم، عليه السلام، أنه قد حان الوقت لدعوة قومه إلى عبادة الله وترك عبادة الأصنام.

رأى ذلك الفتى أن قومه يعيشون فى ضلال وأنهم يظلمون أنفسهم بشركهم، إذ كيف يعبدون الحجارة المصورة ويتركون عبادة الله؟!.

بدأ إبراهيم عليه السلام بدعوة أبيه تارح وكان أبوه ملقبًا بـــ (آزر).

ذهب إلى أبيه يناقشه بكل أدب واحترام ووقار لا يرفع عينه فى والده ولا يتعدى عليه فى الحديث، بل يلين له الكلام ويخفض له جناح الذل من الرحمة، ولا يناديه إلا بكل حب ورحمة وحنان.

قال إبراهيم لأبيه: يا أبت وهذا النداء يدل على تأدبه مع أبيه على الرغم من كفره. لأن الإسلام يأمر بالتأدب مع الوالدين، حتى ولو كانا مشركين.

أخذ إبراهيم يعظ والده ويقول له: لم تعبد الشيطان؟ إن الشيطان كان للرحمن عصيًا.

قال أبوه: وكيف أعبد الشيطان؟.

قال إبراهيم: الشيطان يأمرك وأنت تنفذ.

يأمرك بصنع التماثيل وعبادتها ويأمرك أن تسجد للحجارة وتقدسها من دون الله.

يا أبت إنى خائف عليك من عذاب الله فتكون وليًا للشيطان، ماذا تقول لله يوم القيامة عندما يسألك: من كان ربك الذى تعبده؟ هل تقول له: ربى الشيطان؟ أم تقول له ربى الأوثان! هل يا أبت هذه الأوثان تسمع أو تبصر أو تتكلم؟ إنها خرساء لا تستطيع أن تدافع عن نفسها، ولو جاء كلب صغير فبال عليها فلن تتحرك لكى تدافع عن نفسها.

إنك يا أبت لو اتبعتنى، لأن الله قد آتانى ما لم يأتك من العلم، لأصبحت من المفلحين، وسأدلك يا أبت على الطريق المستقيم.

فما كان من والده إلا أن زجره ووبخه، وقال له: يا إبراهيم إن لم ترجع عن هذا الكفر الخاطئ الذى يسيطر على عقلك لأرجمنك أو تهجرنى، وتغادر إقامتك معى فترة كبيرة عسى من خلالها أن ترجع إلى رشدك.

حزن إبراهيم حزنًا شديدًا على والده، وقال له يا أبت: سوف أستغفر لك ربى إنه كان بى حفيًّا وأرجو أن يهديك إلى الحق وإلى الطريق المستقيم وذهب إلى قومه فحاورهم.

قال إبراهيم: إننى أتعجب من عبادتكم لهذه التماثيل التى لا تنفع ولا تضر، إنها لا تسمع ولا تبصر، لا تعقل ولا تتكلم.

قالوا له: يا إبراهيم، هذا الكلام الذى تقوله ليس له فائدة فنحن عقدنا قلوبنا على عبادة ما كان يعبده آباؤنا، ومهما تحاول فلن نرجع عن ذلك.

رد عليهم: إنكم وآباؤكم بعبادتكم هذه الأوثان تفتحون جهنم عليكم التى لا يدخلها إلا الضالون الذين يألفون العيش فى الغى والضلال.

عندئذ لم يجد إبراهيم، عليه السلام، منهم فائدة تذكر ولا نتيجة ترجى، قال لهم وأعلنها صراحة وبصوت عال:

وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين، وسأتحين الفرصة عندما تخرجون لأعيادكم.

ظن الكفار أن إبراهيم يهذى ولا يدرى ما يقول فهم يعتقدون أن أصنامهم أقوى من أى تهديد يتوعدهم به.

جاء وقت الاحتفال بالعيد وخرجوا جميعًا ونادى نفر منهم على إبراهيم: تعال احتفل معنا، قال إبراهيم ساخرًا منهم: إنى سقيم من أفعالكم وأموركم وعبادتكم الفاسدة.

خرج الجميع إلى احتفالاتهم وتركوا أصنامهم، هرع إبراهيم إليها وأمسك بفأس قوية وقام بتحطيم كل الأصنام إلا صنمًا واحدًا هو كبيرهم، فقد اكتفى بغرس الفأس فى رقبته.

رجع القوم إلى منازلهم ومعابدهم بعد يوم حافل بالألعاب والفرح والبهجة.

تفاجأ الجميع لما رأوا أصنامهم محطمة كل قطعة فى جانب، ففزعوا فزعًا شديدًا وغضبوا أشد الغضب.

وقالوا: من هذا الشقى الذى اعتدى على آلهتنا وفعل بها الأفاعيل؟ وإنه لن يفلت من أيدينا.

لا بد من البحث والتحرى عنه حتى نقبض عليه ونعاقبه على فعلته الشنعاء.

وبعد البحث والتدقيق: قالوا: لقد سمعنا أن هناك فتى يدعى إبراهيم يشتم آلهتنا ويذكرها بكل سوء ويسخر من عبادتنا لها.

فقالوا: أحضروه وأتوا به على أعين الناس حتى يشهدوا نكاله والتحقيق معه.

فلما جاءهم إبراهيم سألوه بعنف وحدة: أأنت الذى فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟.

أراد إبراهيم أن يجيبهم إجابة فيها حنكة وذكاء حتى يكشف لهم طريقة تفكيرهم الفاسدة، قال لهم: بل فعله كبيرهم، هذا الصنم الضخم الحجرى الذى لا ينطق ولا يتكلم فاسألوهم لعلهم ينطقون ويخبرونكم بمن فعل ذلك.

وأنا أعلم أنهم لا يقدرون على النطق أو الكلام، فلما سمعوا ذلك من إبراهيم فطنوا إلى شىء هام وهو أن هذه الأصنام لا تعقل ولا تنطق، وقالوا لأنفسهم: إننا ظالمون.

قال لهم إبراهيم: إذن لماذا تعبدون من دون الله ما لا يسمع ولا ينفع ولا يضر ولا يقدم لكم دليلاً واحدًا على أنه إله.

لقد تضجرت منكم لأنكم تعبدون أوثانًا من دون الله الخالق الذى خلقنى ويهدينى، وهو الذى يطعمنى ويسقينى، وإذا مرضت فهو يشفينى، وهو الذى يميتى ثم يحيينى، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين.

أدرك الكفار أن إبراهيم قد غلبهم بأن نجح فى تحطيم أصنامهم بعد أن رفض الخروج معهم إلى الاحتفالات وقال لهم: إنى مريض.

والواقع أن إبراهيم ﵇ لم يكذب، فهو يقصد أنه كان سقيمًا مريضًا من أفعالهم، أو قال ذلك حتى يموه عليهم وينجح فى تحطيم أصنامهم.

ثم إن الكذب على أعداء الله حلال وهم كذلك أعداء إبراهيم، فما كان منهم إلا أن قرروا عقابه عقابًا أليمًا وذلك بطرحه فى النار، نادى المنادى فى الناس: أن اجمعوا الحطب والأخشاب وخذوا بثأركم ممن حطم آلهتكم فتحمس الناس وجمع كل واحد منهم ما يستطيع حمله فى الوقود والحطب والأخشاب، حتى قيل: إن النار كانت تلحق بالطيور فى الجو فتسقطها، وذلك من شدة حرارتها.

وجاءوا بالفتى المؤمن الجسور الذى لم يخش فى الله لومة لائم، ووضعوه على المنجنيق، وهى آلة تقذف من عليها كأنها مدفع، وما لبثوا كثيرًا حتى ألقوه وقذفوه بشدة فى النار المحرقة المخيفة.

هنا تذكر إبراهيم أن الله لن يتخلى عنه، لأنه ما كان ليلقى فى النار إلا لله ولدعوته.

ودعا دعاء جميلاً كله حكمة وبلاغة «حسبنا الله ونعم الوكيل» فاستجاب الله له.

وقال للنار: يا نار كونى بردًا وسلامًا على إبراهيم، وقُذف الفتى، فإذا بالنار تستجيب لنداء الحق خالقها.

وجلس إبراهيم فى النار بعدما احترق الحبل المتين الذى قُيد به.

وعاش ثلاثة أيام فى نعيم لم يعش مثلهن قط، وبعد ذلك انطفأت النار وأُخمدت.

وخرج إبراهيم يمشى، فما إن رآه الناس الواقفون لكى يترقبوا ما حدث له فإذا بهم يتعجبون ويذهلون، كيف لا تأكل النار إبراهيم؟ النار قد جبلها الله على الإحراق ولكن عناية الله أقوى من حرارة النار.

أصبح الفتى إبراهيم حديث الناس فى كل مكان، حتى طار الخبر بسرعة البرق إلى الملك النمرود، الذى آتاه الله عز وجل الملك والسلطة، وما إن سمع النمرود بهذه القصة حتى أرسل من يحضره إليه.

وقف إبراهيم بين يديه فحاجه النمرود فى ربه.

من ربك يا إبراهيم؟.

ربى الله الذى يحيى ويميت.

قال النمرود فى مكر ودهاء: أنا أحيى وأميت.

وعلى الفور نادى السجان: أن ائت باثنين من السجن قد حكم عليهما بالإعدام.

فجىء له بمن طلب، وقال: يا إبراهيم: هذا الرجل عفوت عنه بعد أن كان محكومًا عليه بالقتل، وأما الآخر فسأقتله أمامك، وبذلك فأنا أميت وأحيى.

لم يرد إبراهيم عليه السلام أن يطيل معه الجدال فى هذه الحجة حتى لا يضيع معه الوقت ولكنه أراد أن يحاجه فى آيه أكبر.

فقال للملك: إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها أنت من المغرب، فبهت النمرود وسكت ولم ينطق بكلمة، وتيقن أن هذا الفتى الذى أُلقى فى النار وخرج دون أن يحدث له شىء على حق، ودعوته من عند الله.

ومع ذلك لم يؤمن لكنه أمر أن يغادر إبراهيم البلاد، وقيل: إن النمرود مات بعد ذلك أفظع ميتة فقد سلط الله عليه حشرة صغيرة دخلت أذنه ولا يستطيع إخراجها.

فكانت تؤلمه أشد الألم وكان يصرخ كل ليلة حتى يُضرب على رأسه بالنعال، واستمر على ذلك حتى مات.

أقام إبراهيم ﷺ فى حران بعدما تزوج من سارة أجمل نساء العالمين بعد أمنا حواء، وكان معه لوط ﷺ، وهو الوحيد الذى آمن به فى بابل، وانتقل معه إلى بلاد الشام، ونجاه الله من القوم الضالين هو وابن أخيه لوط وزوجته سارة.

لما ذهب إلى بلاد الشام وجد أهلها يعبدون النجوم والكواكب فأخذ يدعوهم إلى عبادة الله وترك عبادة الكواكب فخرج معه لكى يثبت لهم فساد اعتقادهم.

فهم كانوا لا يتعبدون إلا بالليل حيث تظهر النجوم، فلما خرجوا اختار كل واحد منهم نجمًا معينًا يتعبد له ويقول: هذا ربى، وأشار كل واحد منهم إلى نجمه.

فقال إبراهيم مثلها مستنكرًا: هذا ربى، فانتظر حتى انقشع الليل وأفل الكواكب فقال لمن حوله ما هذا؟ إن ربى قد غاب وأفل، وأنا لا أحب الرب الذى يأفل ويغيب، ثم جاء اليوم التالى فرأى القمر يتلألأ فى السماء فقال مثلما قال فى اليوم الأول: هذا ربى، ولكن القمر اختفى بطلوع النهار.

فقال: لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الظالمين، ثم جاء النهار فوجد قرص الشمس ينشر آشعته الذهبية على الأرض فينيرها.

فقال: هذا ربى هذا أكبر، فجاء الليل وغابت الشمس.

فقال: يا قومى إنى برىء مما تشركون، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين.

إننى لن أعبد كواكب تغيب وتأفل، بل أعبد الله الذى خلق السموات والأرض.

يا قوم: لا تحاجونى فى الله بعد أن هدانى فأنتم فى ضلال وأنا أعيش فى نور ورحمته فلم لا تخافون من الله أن ينزل عليكم العذاب بشرككم؟.

هاجر إبراهيم ﷺ من بلاد الشام متجهًا إلى أرض الخصب والنماء.. بلد العطاء.. بلد الخير، بلد الأمن والأمان.. إنها مصر، وما إن دخل إبراهيم ﷺ أرض مصر حتى شاع الخير أن معه امرأة من أجمل النساء، وطار الخبر كالريح إلى حاكم مصر وكان

حاكمًا متجبرًا لا يتورع عن الحرام وعن الاعتداء على الأعراض، فأرسل الرسل لكى يحضروها إليه، وقال لهم: إن كان هذا الذى معها زوجها فاقتلوه.

علم الخليل ما أراده هذا الحاكم.

فقال لسارة: إن سألوك عنى فقولى: هو أخى، فهذه الدنيا ليس فيها أحد مؤمن بالله إلا أنا وأنت وابن أخى، فنحن أخوة فى الإسلام وفى دين التوحيد.

لما جاءوا بسارة أوقفوها بين يدى الملك فسر الملك لما رآها سرورًا عظيمًا وطمع فى جمالها فمد يده إليها.

عندئذ دعت سارة ربها: يا رب لقد أحصنت فرجى إلا على زوجى فلا تمكن هذا الكافر منى، فاستجاب الله لها وشُلت يد الحاكم الآثم.

فخافت سارة إذا استمر الحاكم على هذه الحال ان يقتلوها، فدعت الله أن يفكه ففكه الله، فعاد ومد يده مرة أخرى فشُلت يده.

فقال لها: فكينى فدعت الله ففك يده، لكنه رجع مرة ثالثة فشل الله يده.

فقال لها: هذه المرة: فكينى ولن أمسك بسوء أو أذًى، فدعت سارة ربها ففك الله يده؟ فعلم الحاكم أن هذه السيدة ليست عادية كباقى النساء وقال لجنوده: لقد أتيتم لى بشيطانة.

نادى الحاكم زوجها إبراهيم وأعطاهما الهدايا، وأجزل لهما العطاء من ذهب وفضة وطعام، وجارية أمينة هى السيدة «هاجر» عليها السلام.

رجعوا جميعًا إلى بلاد الشام مرة أخرى، وذهب لوط إلى قرية تدعى «سدوم» وهى تلك القرية الفاجرة.

عاش إبراهيم وسارة وهاجر فترة من الزمن وتاقت نفس إبراهيم ﷺ إلى أن تنجب له زوجته ولدًا يرث منه العلم والإيمان.

لكن سارة كانت عاقرًا ولكنها لما رأت منه مدى اشتياقه للولد أشارت عليه أن يتزوج خادمتها هاجر المصرية.

تزوج إبراهيم ﷺ من هاجر، ودارت الأيام رحاها حتى شعرت السيدة هاجر بالحمل، ودبت الغيرة فى قلب سارة تلك الزوجة المخلصة الوفية التى تحب زوجها أيما

حب وتريد إسعاده فطلبت من زوجها أن يأخذ هاجر ويذهبا إلى مكان آخر فترة من الزمن لعل سلطان الغيرة ينام ويهدأ.

قرر إبراهيم مغادرة بلاد الشام إلى الأرض المباركة حيث قواعد البيت العتيق التى أسستها الملائكة، إنها الكعبة.. بيت الله الحرام.

وصل إبراهيم إلى مكة فلم يجدها إلا صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء.

وضع رحاله على الرمال الصفراء الذهبية وأنزل زوجته الأمينة وطفله الرضيع الجميل «إسماعيل» كانت مكة تقع فى وادٍ جاف حيث انعدام المأكل والمشرب لا مرعى لا عشب.

وهو وادٍ قفر، لكن الخليل يعلم من الله أن هذا الوادى سيكون مباركًا.

الآن قال لزوجته: ابقى هنا مع وليدك إسماعيل، فقالت له: إلى أين تتجه يا إبراهيم؟! أتتركنا ههنا حيث الصحراء القاحلة المجدبة؟!! قال لها: لا تخافى ولا تحزنى.. وتركها وغادر، فجرت وراءه لا.. لا تفعل يا إبراهيم، ألا تخاف علينا؟! أتترك امرأة ضعيفة وطفلاً لم يشتد عوده بعد فى هذا المكان الموحش القفر؟!! ألا تخاف علينا من السباع والوحوش؟ لم تنفع توسلاتها ولم تُجْدِ نداءاتها شيئًا، قالت له: ما دمت مصرًا على تركنا فأريد أن أعلم: الله أمرك بذلك؟!.

فقال: نعم، أمرنى الله بترككم فى هذا المكان، قالت: إذن لن يضيعنا.

لقد أيقنت هاجر أن الله لا يترك عباده الصالحين ويدافع عن المؤمنين ضد أى خطر يتربص بهم.

غادر إبراهيم المكان حتى غاب عن عينى هاجر ووليدها الصغير.

مر الوقت كأنه دهر وشعرت هاجر بالعطش وكذلك الرضيع.

قالت فى نفسها: ماذا أفعل والصحراء مقفرة لا تحوى بين رمالها الصفراء نقطة من الماء؟!.

بينما هى كذلك تفكر إذ بشىء يلمع هناك من بعيد فانتبهت إليه وهرولت علها تجد ما يروى ظمأ رضيعها فلم تجد شيئًا.

وكان هذا المكان اسمه «الصفا» ونظرت فإذا بمكان مرتفع آخر يواجه الصفا يلمع كأنه به ماء فإذا بها تهرول مسرعة نحوه فلم تجد شيئًا، إنه السراب يظهر على المروة.

أخذ هذا المشهد يتكرر تباعًا سبعة أشواط، وفى تلك الأثناء وهى على المروة فى الشوط السابع إذ بصوت خرير المياه تسمعه قريبًا من تحت قدم رضيعها.

وأحست فى نفسها أن إيمانها بالله بدأ يؤتى أكله، فانتبهت وأنصتت واتجهت صوب الصوت فإذا بها تجد عجبًا.

إن الماء يتفجر بغزارة من تحت قدم ابنها فجرت نحوه بكل لهفة وشوق.

لقد وجدت ما تصبو إليه.

لقد وجدت الحياة من جديد، نعم وجدت الحياة، ولم لا؟! فالله جعل من الماء كل شىء حى، فلا غرو فى ذلك.

ما إن وجدت الماء يندفع بقوة من تحت قدم ابنها حتى فرحت فرحًا شديدًا وأخذت تحجز الماء بحبات الرمال الساخنة.

تقول لهذه العين زم زم حتى عُرف هذا البئر فيما بعد باسم «زمزم».

لقد أرسل الله جبريل عليه السلام وضرب بجناحيه تحت قدم إسماعيل فنبع الماء ليروى ظمأها ويشبع جوعها لأنه طعام طعم وشفاء سقم، ولو تركته دون أن تحجز عليه لصار نهرًا عظيمًا ولكنها إرادة الله حتى يكون مصدرًا للسقيا فيما بعد لضيوف الرحمن، يغتسلون منه ويشربون ويدعون الله ببركته فيستجيب لهم.

كانت الطيور الهائمة التى تسبح فى جو السماء ترى البركة والحياة تتلألأ فى هذه البقعة من الأرض فتنزل قريبًا منه وتتذوق طعمه فإذا به ماء عذب نقى.

وما أن اجتمع الطير حول هذا المكان حتى نادى بعضه بعضًا وكثر عدده وأصبح يغدو ويروح على هذا المكان.

جاءت قافلة تجارية تابعة لقبيلة جرهم اليمنية، فاكتشفت من بعيد تردد الطير على هذه البقعة المباركة فأدركت على الفور أن الطير لا يحوم إلا إذا كان هناك ماء.

شدت على عجل رحالها وانطلقت مسرعة نحو البئر المباركة فإذا بهم يجدون السيدة الشريفة قائمة عليه فاستأذنوها بالسقيا وطلبوا منها أن تسمح لهم بإحضار قبيلتهم

من اليمن لكى تقيم هنا بجوار مصدر الحياة فسمحت لهم شريطة أن يعطوها أجرًا تعيش منه هى وولدها إسماعيل.

وافقوا على الفور وذهبوا مسرعين إلى قبيلتهم وأحضروها وهم مسرورون بذلك.

بهذه البئر وهذا الاتفاق ضمنت هاجر بقاءها هى ورضيعها واطمأن قلبها وأخذت ترضع طفلها قرة عينها.

مرت الأوقات والأيام حتى عاد الخليل من سفره الذى أمره الله به.

وإذا به يجد ما اطمأن به قلبه وارتاح به فؤاده وقرت به عينه وأيقن أن الله لن يضيع أهله وأن من يتوكل على الله فهو حسبه.

وكذلك فإنه من يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب.

إنه إيمان الأب والزوج الحنون على زوجته وولده، وإيمان الزوجة الصابرة التى أسلمت أمرها إلى الله، مرت الأيام وسعد إبراهيم بزوجته وولده، وسعدت هاجر بزوجها ورضيعها الذى شب وكبر وأصبح فتى قويًا جميلاً.

الآن جاء الهاتف لإبراهيم فى منامه: اذبح ابنك، لكن إبراهيم استعاذ بالله من الشيطان.

ولكن هذا الهاتف عاد إليه مرة أخرى فاستعاذ إبراهيم مرة أخرى من الشيطان.

وظن أن هذا الهاتف إنما هو من الشيطان ولكن رؤيا الأنبياء حق، وجاءه الهاتف مرة ثالثة فعلم إبراهيم أن هذا هو أمر من الله يجب إطاعته وتنفيذه دون جدال.

على الرغم من مرارة هذا الأمر إلا أن ذلك لم يثن إبراهيم عن تنفيذ أمر الله، وهو ذبح ابنه فلذة كبده.

ففكر إبراهيم فى هذا الأمر ونادى على إسماعيل، وقال له: يا بنى إن الله يأمرنى أن أذبحك فانظر ماذا ترى؟.

رد إسماعيل: يا أبت افعل ما تؤمر، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين.

هكذا امتثل الابن لأمر الله وأمر أبيه ولم يعانده، فهو بار بوالده كما كان أبوه بارًا بوالده من قبل.

جاء دور الشيطان الذى لا يتوانى عن استغلال الفرص، فذهب إلى إبراهيم وقال له: كيف تذبح ابنك الوحيد أليس لك قلب؟!.

رد عليه إبراهيم: ان اخسأ يا عدو الله ورماه بالحصى.

فذهب إلى السيدة هاجر وقال لها: إن إبراهيم سيذبح ولدك فهل لك أن تمنعيه من هذه الفعلة؟

فقالت له: اخسأ يا لعين ورمته بالحصى.

لم ييأس الشيطان وذهب إلى إسماعيل وقال له: يا إسماعيل أنت ما زلت صغيرًا وعمرك أمامك طويل فكيف تسمح لوالدك أن يذبحك؟ هل هذا معقول؟!.

قال له إسماعيل: اخسأ يا عدو الله ورمى فى وجهه الحصى.

ذهب إبراهيم بابنه فى الصحراء بعيدًا عن أمه وشحذ السكين وأجلسه على صخرة.

قال له إسماعيل: يا أبت إذا هممت بذبحى فاجعل وجهى ناحية الأرض حتى لا ترى وجهى فتأخذك علىَّ الشفقة فترجع عن أمر الله.

طاوعه أبوه وجعل وجهه إلى الأسفل وجاء بالسكين ووضعها على رقبته من الخلف وشرع فى الذبح ولكن ياللهول!!.

السكين لا تريد الذبح هل هى عصت أمر الله أم ماذا؟.

لا، إنها أطاعت أمر الله بعدم الذبح.

أخذ إبراهيم السكين وجربها على الأحجار فوجدها تقطع وتنفذ، وإذا وضعها على رقبة ولده لم تقطع ولم تحز الرأس.

فى هذه اللحظة نادى مناد من السماء: يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، وأطعت أمر الله أنت وزوجتك وولدك، ولذلك فإن الله سيفديه بذبح عظيم.

وهذا كبش سمين أقرن أرسله الله لكى تذبحه بدلاً من ولدك الصابر إسماعيل، وستكون سنة من بعدك يسير عليها أبناء أمتك، وسنجعلها لهم عيدًا اسمه «عيد الأضحى».

فرحت هاجر فرحًا شديدًا فقد نجح زوجها النبى وابنها الصابر الطائع فى امتحان صعب قلما ينجح فيه أحد من البشر.

أراد إبراهيم ﷺ أن يرجع إلى فلسطين حيث الزوجة الوفية «سارة» عليها السلام، إنها هناك تفكر فيه وتعد الأيام لرجوعه.

ولقائه مرة أخرى فلقد ضحت بقربه حتى يسعد بالزوجة الأخرى وولده الجميل.

كان إبراهيم كريمًا أشد الكرم حتى لقب بـــ «أبى الضيفان» فكان لا يستطيع أن يأكل بمفرده حتى يستضيف من هو جائع أو عابر سبيل.

ذات يوم لمح من بعيد رجالاً غرباء ليس عليهم أثر السفر ولا يعرفهم أحد من أهل القرية، فما إن وصلوا إليه حتى ألقوا عليه تحية الإسلام فقالوا له «سلامًا».

رد عليهم التحية قائلاً: سلام، ولكنه تعجب من أمرهم، من هؤلاء؟ وما الذى أتى بهم إلى هنا؟.

ما لبث أن استضافهم فى بيته واختار أسمن وأقرن عجل عنه فنحره وطبخه ثم قدمه إليهم، لكنهم لم يمدوا أيديهم، فهم لا يأكلون ولا يشربون، إنهم الملائكة، جاءوا مارين بإبراهيم ﷺ يحملون معهم البشرى.

بشرى العذاب لقوم لوط الفجرة قاطعى الطريق مرتكبى الفواحش.

أما بشرى الخير فله ولزوجته سارة التى رأتهم فضحكت فبشروها بإسحاق نبيًا ومن وراء إسحاق يعقوب، فما إن سمعت ذلك حتى تعجبت وقالت: ألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخًا وأنا عقيم، فكيف ذلك؟!.

إن هذا لشى عجيب.

فقالوا لها: إنه أمر الله، أتعجبين من أمر الله، رحمة الله عليكم وبركاته أهل البيت إنه حميد مجيد.

اطمان إبراهيم بعدما كان مستوحشًا خيفة منهم بسبب عدم مد أيديهم لتناول الطعام وسألهم ما سبب مجيئكم إلى هنا.

فقالوا له: نحن مرسلون إلى قوم لوط ابن أخيك، إنها قرية فاجرة سنهلكها.

زوجى.

فخاف إبراهيم وقال لهم: إن فيها لوطًا مؤمنًا، قالوا: نحن أعلم بمن فيها، لننجينه وأهله إلا امرأته إنها كانت من الغابرين.

وولدت سارة بعد صبر دام كثيرًا فقد بلغ عمرها تسعين عامًا وبلغ عمر إبراهيم عليه السلام عشرين ومائة عام.

هكذا يكافئ الله عبادة حيث لا يتوقعون المكافأة ويرزقهم بغير حساب، ويهب لمن يشاء الذكور ويهب لمن يشاء الإناث، أو يزوجهم ذكرانًا وإناثًا ويجعل من يشاء عقيمًا.

ولدت سارة إسحاق عليه السلام ومكث النبى إبراهيم الخليل مع زوجته سارة وولدها فترة من الزمن ثم قرر الرجوع إلى مكة، حيث هناك أمر هام، إنه أمر الله ببناء الكعبة حتى يحج الناس إليها فى كل عام ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام.

وتتحقق دعوة إبراهيم الخليل: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ (إبراهيم: ٣٧).

توجه الخليل وشرع فى رفع القواعد التى أسستها الملائكة عليهم السلام.

ولما اشتد عود إسماعيل شارك أباه فى هذا العمل العظيم ونقل معه الحجارة اللازمة لبناء حوائط البيت العتيق[1] المبارك.

أخذ إبراهيم عليه السلام فى بناء الكعبة المشرفة وإسماعيل يساعده فيناوله الأحجار وهو واقف على حجر كبير اسمه «مقام إبراهيم».

وأمرنا الله عز وجل أن نصلى خلفه عند العمرة أو الحج.

تعب إسماعيل من نقل الأحجار، ومع ذلك لم يثن والده عن إكمال ما قد بدأه تنفيذًا لأمر ربهما.

وجيء بالحجر الأبيض ووضع فى المكان الناقص، وبه أكمل بناء الكعبة.

واسود هذا الحجر مع مرور الزمن وقيل: إنه اسود من ذنوب العباد، وقيل: إنه حجر أبيض من أحجار الجنة المباركة.

---

(١) العتيق: القديم.

وما إن أكمل إبراهيم بناء الكعبة حتى أمره الله عز وجل أن يؤذن فى الناس أن حجوا إلى بيت الله الحرام.

فتعجب إبراهيم وقال: يا رب وما يبلغ صوتى؟! فقال له الله: عليك النداء وعلينا البلاغ، وإذا أذنت فى الناس بالحج فسيأتونك رجالاً أو ركبانًا، وسأسمع كل بنى آدم نداءك حتى الخلق فى ظهور آبائهم قبل أن يولدوا.

وسأجعل القلوب تحن إليها وتشتاق لزيارتها والطواف بها كما يشتاق الرضيع إلى صدر أمه.

واليوم يذهب الحجاج بالملايين إلى بيت الله الحرام ويشاهدون مقام إبراهيم عليه السلام الذى غاصت فيه قدماه وهو يرفع القواعد، كما يشاهدون الحجر الأسود «الأسعد» ويقبلونه كما قبله الرسول «محمد» ﷺ، كما يقفون على جبل الصفا ويروحون ذهابًا وإيابًا سبعة أشواط.

لقد رفع إبراهيم الخليل القواعد من البيت وهو يدعو الله ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (البقرة: ١٢٧ - ١٢٩) .

ودعا إبراهيم ربه أن يبارك فى هذه الأرض ويجعلها أمنًا وسلامًا وأن يرزق أهلها من الثمرات لعلهم يشكرونه وأن يرسل رسولاً لهم يكون رحمة للعالمين، وهكذا طهر إبراهيم وولده إسماعيل عليه السلام البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود، ذلك البيت الذى يقابل عرش الرحمن فى السماء.

والذى شهد بناء آخر فى عهد الرسول ﷺ الذى وضع بيديه الشريفتين ما اكتمل به البيت وهو الحجر الأسعد.

تفكر إبراهيم فى مخلوقات الله كما تأملها وهو فتى وسأل ربه عز وجل قائلاً: ربى أرنى كيف تحيى الموتى؟!.

قال له ربه: أولم تؤمن؟.

فقال إبراهيم: بلى يا ربى أنا مؤمن ولكن ليطمئن قلبى.

فأمره الله عز وجل أن يأخذ أربعة من الطير ويقوم بتقطيعها قطعًا مختلفة ثم يضع على كل جبل من أربعة جبال حوله هذه القطع المختلفة ببعضها ثم بعد ذلك ينادى على هذه الطيور.

فأمسك إبراهيم بالطيور وقام بذبحها وتقطيعها ثم وضع على كل جبل منهن جزءا ونادى على الطيور فما كان منها إلا أن جاءته تسعى.

بعدما شاهد بعينيه كيف يجمعها الله مرة أخرى من ريش وعظم ولحم ودم مختلط ببعضه إلى طائر يمشى ويطير ويحرك أجنحته، اطمأن قلبه وسكنت نفسه.

ومرت السنون وتوفيت هاجر عليها السلام، وحزن علها إبراهيم ﷺ، ثم مرض هو الآخر عندما بلغ سنه خمسة وسبعين ومائة، ومات ﷺ بعد حياة حافلة قضاها كلها فى طاعة الله ودعاء أبيه وقومه من أهل بابل وأهل حران، وفى بناء الكعبة المشرفة وطاعته لله فى أمر الذبح.

نعم يستحق إبراهيم ﷺ التكريم من الله وهو بحق من أولى العزم من الرسل.

ودفنه ولداه إسماعيل وإسحاق فى مدينة «الخليل» بفلسطين العربية، ثم تبعته سارة عن عمر يناهر عمره ترك الخليل نبيين كريمين، فهذا هو النبى إسماعيل ﷺ الذى لُقب بالذبيح، والذى كان عند ربه مرضيًّا، الذى أطاع الله فى أمر الذبح كما أطاعه فى رفع قواعد البيت العتيق.

وكان بارًّا بوالديه، وهو الذى عاش مع والده ووالدته بين قبيلته جرهم العربية، وتعلم منهم اللغة وصار أفصحهم، فهو بحق الذى تنسب إليه العرب المستعربة.

وكان صادق الوعد، فيُحكى أنه قد تواعد مع رجل أن يقابله فى مكان ما، فلما ذهب إلى هذا المكان المتفق عليه لم يجد الرجل فانتظره حتى يأتى، لكن الرجل نسى الميعاد فمكث إسماعيل من الصباح حتى المساء.

وما إن تذكر الرجل ميعاده مع إسماعيل جاء إليه فى المساء فوجده جالسًا ينتظره، فتعجب الرجل، ولذلك وصفه الله بأنه كان صادق الوعد.

والنبى إسحاق هو الابن الثانى لسيدنا إبراهيم، وهو أبو إسرائيل، فهو أصغر من أخيه إسماعيل وولد له يعقوب ومن بعد يعقوب يوسف والأسباط كذلك، وقد وصفهم رسول الله محمد ﷺ بأنهم الكرام.

قصة لوط عليه السلام

هو لوط بن هاران بن تارح، وهو ابن أخى إبراهيم الخليل، وهو الوحيد الذى آمن بدعوة عمه إبراهيم من أهل بابل وهاجر معه إلى الشام.

وبعدما رجع من مصر بصحبة عمه ذهب يقيم فى قرية «سدوم» وأعطاه الله النبوة لإيمانه وتقواه وصبره وجلده على الحق.

وكانت قرية سدوم تقع بقرب مكان البحر الميت المعروف حاليًا الذى يقع بين الأردن وفلسطين ببلاد الشام ويقطن بها عدد كبير من الناس.

لكنهم كانوا قومًا ظالمين يفعلون كل ما هو مستقبح وكل ما تنفر منه الفطر السليمة.

فكانوا مجرمين لا يعملون معروفًا واحدًا ولا يتركون منكرًا إلا أتوه وهم سعداء.

فكانت جرائمهم كثيرة ومتعددة، فمنهم من كان يقطع الطريق على الناس بغير وجه حق، ومنهم من كان يأتى المنكر فى ناديه الذى يتجمع وأصحابه حولها.

وجاء لوط عليه السلام ومكث بين ظهرانيهم فلاحظ سلوكهم المنحرف وتفكيرهم الشاذ الأثيم وفعلهم القبيح المنكر.

فكانوا يعدلون عن النساء ويتركون الحلال ويلجأون على عمل قبيح لم تألفه الطباع ولم يعرفه أحد قبلهم، فكانوا يأتون الذكران فى أدبارهم، والعياذ بالله، فهم أول من ابتدع فكرة فاسدة مؤذية هى الشذوذ الجنسى، والاعتداء على أعراض الرجال، وذلك بإتيانهم فى أدبارهم، وهى فتحة الشرج التى تخرج منها فضلات الطعام وكانوا يستلذون بذلك.

بل هم فى سكرة يعمهون فيها لا يراعون أى معيار للأخلاق ولا يقيمون لها وزنًا.

فنهاهم لوط عن ذلك كله وبدأ يدعوهم إلى عبادة الله وترك الفواحش والمنكرات.

فقال لهم: اتقوا الله الذى أرسلنى إليكم لكى آخذ على أيديكم وأخرجكم من ذلك المستنقع الآثم الذى تعيشون فيه، وأطيعونى فأنا لا أسألكم على موعظتى ودعوتى لكم أجرًا فإن أجرى سوف يعطينيه الكريم.

وإننى يا أهل سدوم أنكر عليكم ما تفعلونه من موبقات وفواحش قذرة تتباهون بها فى أنديتكم، فواعجبًا تتركون الزوجات الطاهرات وتلجأون إلى الخبث والخبائث يا لكم أصحاب فطرة مقلوبة خبيثة، بل أنتم أخبث الناس على وجه الأرض.

فما وجد لوط ﷺ من قومه غير العناد والكفر والصد عن سبيل الله بغير الحق وقالوا له: ائتنا بما تعدنا من العذاب إن كنت من الصادقين.

استمر هؤلاء الأنجاس المناكير فى البغى والانحراف الأخلاقى والدينى والفطرى فراحوا يقلبون الأوضاع ويقولون: إن لوطا وأهله قوم يتطهرون وهذا الطهر من وجهه نظرنا هو العيب بعينه.

فلن يستطيع هذا يدعى أننا أنجاس أن يوقف أفعالنا بل يجب التخلص منه وطرده من القرية لا لشىء سوى أنه يتطهر ويدعو لذلك.

فدعا لوط ﷺ ربه أن ينصره على هؤلاء المفسدين المعاندين المكابدين الذين لا يرعون لأحد حقوقًا أو واجبات.

فى تلك الأثناء استجاب الله للنبى لوط ﷺ فأرسل إليهم الملائكة منهم جبريل وميكائيل وملك الموت عليهم السلام.

وأثناء قدومهم إلى سدوم مروا على عمه الخليل إبراهيم فاستقبلهم وأكرمهم.

وقالوا له: نحن رسل ربك أرسلنا لنهلك أهل سدوم فخاف ﷺ على ابن أخيه فأخبروه بأنهم سينجونه من هؤلاء القوم الفاسقين وسوف يهلكون امرأته لأنها كانت راضية عما يفعله قوم سدوم، وقيل: لأنها أخبرت أهل سدوم بمجىء هؤلاء الشباب الحسان الوجوه إلى القرية.

فلما ودعوا الخليل ذهبوا إلى سدوم وكانت ابنة لوط قائمة على بئر تملأ منها الماء فى قصعتها فما إن رأتهم حتى هرولت إلى أبيها وقالت له: إن هناك بأطراف القرية شبابًا حسان الوجوه، ويبدو أنهم سيدخلون القرية، فقلق لوط وفزع وهرول إليهم مع ابنته وقال لهم: ماذا تريدون؟.

فردوا عليه: ضيوف.

فما كان من النبى لوط إلا أن أكرمهم ورحب بهم ولم يستطع ردهم، وفى نفس الوقت أخبرهم بسلوك وأخلاق أهل هذه القرية كى يأخذوا حذرهم.

فما إن علم أهل القرية الخبثاء بمقدمهم وأنهم نازلون عند لوط حتى تجمعوا عند بيته يطلبون الضيوف الحسان، فقال لهم لوط ﷺ: ماذا تريدون؟! فقالوا له: نريد ضيوفك حسان الوجوه لكى نمارس مع كل واحد منهم هذه الرذيلة البغيضة لديك المحببة لدينا.

فقال لهم: يا قوم هؤلاء ضيوفى فلا تفضحون، اذهبوا وارجعوا إلى رشدكم وتزوجوا وعاشروا بنات أهل القرية فى الحلال وعن طريق الزواج، ودعكم من هذا الخبث والعبث بأعراض الناس.

فردوا عليه بكل غلظة وتبجح: لقد علمت يا لوط ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد، فقال لهم لوط لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد.

فقالت له الملائكة: اطمئن يا لوط، فنحن رسل ربك لن يصلوا إليك، فأسر بأهلك فى الليل ولا يلتفت أحد منهم.

إننا سننزل بهم العذاب الأليم عند الصبح، أليس الصبح بقريب؟.

فهم أهل سدوم على ضيوف لوط، لكن هيهات هيهات لما يريدون، فقد ضربهم الأمين جبريل ﷺ بجناحه فطمس الله أعينهم فعميت وأصبحوا لا يرون شيئًا.

وقالوا: لقد سحرنا فتحسس كل واحد منهم الطريق إلى منزله وجلسوا فى بيوتهم، ومع ذلك لم يتوبوا حتى جاء الصبح.

وجاء وعد الله الذى لا يخلف وعده، ونزل الجزاء العادل لهذه القرية الظالمة التى طالما ارتكبت الفواحش والآثام، ولطالما أهدرت وحطمت كل المغايير الأخلاقية والربانية والفطرية السليمة.

ورفع الأمين جبريل القرية من جذورها حتى أوصلها إلى السماء، فسمع أهلها تسبيح الملائكة وسمعت الملائكة نباح كلابهم وصياح ديوكهم ثم قلبها جبريل ﷺ وجعل عاليها سافلها.

وأمطر الله عليهم حجارة معلمة مكتوب عليها اسم كل واحد منهم حتى هلكوا.

فهم قد قلبوا الفطرة السليمة فقلب الله قريتهم على رءوسهم وقلبهم فى نار جهنم وأذاقهم سوء العذاب إلى يوم يلقونه يوم الحساب.

وحذر النبى ﷺ من يفعل فعلتهم وبيَّن جزاء ذلك اللعن من الله.

قصة يوسف عليه السلام

لما توفى إبراهيم الخليل ترك من خلفه ذرية تتكون من نبيين كريمين هما: إسماعيل الذبيح أبو العرب، وإسحاق عليه السلام، الذى جاءت منه بنو إسرائيل، فولد «يعقوب» عليه السلام الذى عاش فى أرض فلسطين مع بنيه الذين بلغ عددهم اثنا عشر ولدًا ولكنهم لم يكونوا أشقاء مع يوسف وبنيامين عليهما السلام.

أحب يعقوب يوسف وأخاه حبا ملأ عليه فؤاده، وكان لا يترك يوسف لحظة، فروحه متعلقه بروحه ويرى فيه الصلاح والعلم والنبوغ والذكاء ويرى فيه علامات النبوة التى ورثها عن أجداده الكرام: إبراهيم وإسحق.

لاحظ أخوة يوسف وأكبرهم يهوذا بأن أباهم يحب يوسف حبًّا جمًّا ويقربه من نفسه أكثر منهم، ويهتم به اهتمامًا كبيرًا، فدبت الغيرة فى قلوبهم، ووسوس لهم الشيطان بأن يقوموا بارتكاب عمل سيئ، ولكن ما هو طبيعة هذا العمل؟!.

إنه إيذاء يوسف عليه السلام والتخلص منه لكى يخلو لهم وجه أبيهم ثم يعلنوا توبتهم بعد ذلك، لكن ما نوع هذا الإيذاء؟!.

اجتمعوا وقرروا قتل يوسف أو نفيه فى أرض بعيدة عن والده، وفى أثناء ذلك رأى يوسف رؤيا عجيبة حكاها لوالده يعقوب.

فقال: يا أبت، لقد رأيت أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين.

فقال أبوه: يا بنى إنها رؤيا طيبة صادقة من الله، ولكن يا بنى، لا تحكِ لإخوتك ما رأيت فى منامك حتى لا يكيدون لك، وأنا أعلم يا بنى أنهم يكنون فى صدورهم شيئًا لك.

بعد ذلك جاء أخوة يوسف ودخلوا على أبيهم وفى عيونهم المكر والخديعة وهم يظهرون براءة الأطفال فقالوا لأبيهم يعقوب: ما رأيك يا أبانا لو سمحت لنا بأخذ يوسف معنا فى الصحراء يلعب ويجرى ويمرح ويرفه عن نفسه؟.

فقال لهم أبوهم: يا بنى إننى خائف وقلق من ذهابكم به، كما أننى خائف من أن تتركوه بمفرده فيختلى الذئب به فيأكله.

فقالوا: يا أبانا لماذا تشكك فى قدراتنا؟ وما لك لا تأمنا عليه؟ فنحن سنحافظ على أخينا مثل أعيننا، ولئن اقترب منه الذئب ونحن كما ترى عصبة فإنا نكون فى هذه الحالة خاسرين لا فائدة فينا.

فأعطاهم يعقوب أخاهم وهو قلق يترقب، فلما ساروا به أخذوا يضايقونه طول الطريق حتى وصلوا إلى بئر عميقة فى الصحراء يعرفونها وكانوا قد اتفقوا على إلقائه فى قاع البئر لعل أحدًا من المارة التجار ينتشله من البئر ويستخدمه بعيدًا عن بيته وبعيدًا عن أبيه.

وفعلا قاموا بفعلتهم الشنعاء وألقوا ذلك الطفل الجميل فى قاع البئر، ورجعوا إلى أبيهم يبكون بكل حرقة ويذرفون الدموع الكاذبة على فقد أخيهم يوسف.

وقالوا لأبيهم بكل مكر ودهاء: يا أبانا لقد ذهبنا بيوسف وتركناه عند متاعنا وملابسنا لكى يحرسها حتى ننهى السباق، فإذا بالذئب قد تسلل خفية وفى ظل انشغالنا باللهو واللعب نال من يوسف ولم نعثر له على عظم أو لحم، ولم نجد سوى قميصه هذا الملطخ بالدماء.

استقبل يعقوب هذا الخبر المزعج بصبر ألهمه الله إياه وعرف على الفور أن هناك خديعة، فهم جاءوا بالقميص ملطخًا بالدماء دون أن يحصل به أى خدوش أو تمزق.

فقال: عجبًا لذئب يأكل يوسف ويترك ثيابه سليمة! فقالوا له: يا أبانا حتى لو كنا صادقين فأنت لم تطمئن لما نقول.

وهنا قد وقعوا فى الكذب لأنهم قالوا: ولو كنا صادقين ولم يقولوا إنا لصادقون، فصبر يعقوب صبرًا جميلاً على ما ألم به من فراق أعز الناس.

ظل يوسف ذلك الغلام الجميل حبيسًا فى ظلمات البئر فأنزل الله فى قلبه الطمأنينة وقذف الرعب بعيدًا عن نفسه وأوحى إليه أنه سوف ينبئ إخوته بما فعلوا مستقبلاً.

ومر الوقت ثقيلاً على يوسف فهو يقاسى الظلام والوحدة والحرمان من الأب الذى طالما أحبه كثيرًا وعطف عليه واغتم لما نزل به.

كانت مجموعة من التجار تمر بالصحراء وتريد السقيا لهم ولدوابهم فجاءوا على البئر وأرسلوا دلوهم لأسفل حتى وصل إلى القاع فأمسك فيه الغلام بقوة فها هو طوق

النجاة جاء إلى عنده بإرادة الله تعالى، أراد التجار إخراج الدلو بعد ملئه بالماء فوجدوه ثقيلاً جدًا حتى اجتمعوا وشدوه بقوة، وإذا بالدلو يتعلق به غلام رائع الجمال.

صاح واحد منهم من شدة الفرح وهو يقول: يا بشرى هذا الغلام، لقد رزقنا به، يجب أن نخفيه حتى لا يراه أحد فيشك فى أمرنا ويأخذه منا بعد ما حالفنا الحظ وحصلنا عليه.

واصل التجار السير فى طريقهم إلى مصر حتى وصلوا إلى السوق الذى يباع فيه العبيد وعرضوا يوسف بحذر للبيع فأول ثمن عرض عليهم قبلوه حتى يتخلصوا من هذه المهمة التى فاجأتهم.

وباعوه بثمن زهيد للغاية، واشتراه رجل من مصر ثرى ذو وجاهة.

إنه وزير المالية الذى ذهب به إلى القصر وأكرمه وأعجب به.

وكان الوزير عنينًا لا يضاجع النساء ولم يكن له أولاد فأعطاه لزوجته.

وقال لها: أكرميه عسى أن ينفعنا أو يكون لنا ولدًا.

ذلك ليعلم يوسف ويعلم الجميع أن الله يمكن لعباده المخلصين فى الأرض ولا يتركهم هباء ولا عبثًا ولا مضيعة للذئاب.

والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، بل يجهلون قدرة الله وعلمه وعظمته.

ومرت الأعوام وكبر يوسف الصديق وآتاه الله العلم والحكمة لأنه كان من المحسنين المخلصين، وعلمه تأويل الأحاديث وتفسير الرؤى والأحلام.

أصبح يوسف عليه السلام ذلك الفتى الثرى تربى فى قصر الوزير يأكل أفضل الطعام ويلبس أفخر الثياب، فهو يُكنُّ لصاحب هذا القصر الذى اشتراه وهو صغير كل حب واحترام فهو لا ينكر المعروف.

حتى لفت نظر زوجة العزيز وأخذت تراقبه فى كل خطوة يخطوها، فأعجبت به أشد الإعجاب وبدأ الحب ليوسف يملأ عليها حياتها وينشغل به فؤادها ولا تفكر إلا فيه، فهى لا ترى أمامها سوى صورته الجميلة التى لا تقاوم والتى تضعف أمام عينيه أية امرأة مهما كانت عفتها.

قررت أن تنال من يوسف وتنصب شباكها لكى تصيده بها وتتمكن منه وتجعله يلبى رغباتها الجامحة وشهوتها المتقدة، فجاءت فى يوم من الأيام ونادت عليه فما أن دخل عليها وهى فى أكمل زينة وأجمل صورة، فغلقت جميع الأبواب حتى لا يستطيع أحد الدخول عليها.

وقالت ليوسف فى لهفة واشتياق: لقد تهيأت لك يا يوسف وأريدك أن تطاوعنى فى رغبتى أن أستمتع بك وتستمتع بى، فما كان من الصديق إلا أن ارتجفت أطرافه وارتعدت مفاصله واقشعر جلده لهول ما سمع ولشناعة ما راى، فهو لم يكن يتوقع يومًا أن تخون امرأة العزيز زوجها مع فتاه يوسف.

تحول نظره على الفور وتماسك، وقال لها: معاذ الله أن أفعل ذلك، وكيف أطاوعك وأخون سيدى الذى ربانى فى قصره كما يربى ولده؟!.

وكيف أعض اليد التى قدمت لى يومًا الحب والحنان والرعاية والاحترام وأنا إن فعلت ذلك فسأكون من الظالمين والله تعالى مُطَّلِعٌ علىَّ.

لكن امرأة العزيز لم تعِ ليوسف ما يقوله ولم تزح الغشاوة عن بصرها حتى ترى الحق ولم تفتح أذنها لكى تسمع الصواب، ولم تقوم لسانها لكى تعتذر لذلك الفتى العفيف ولم تستح من فتاها أن يفضحها لدى سيدها.

لم تفعل ذلك على الإطلاق بل سارعت وهمت به حتى تمارس معه الرذيلة لكنه من عباد الله المخلصين، فلولا برهان ربه ورعايته له لهمَّ بالتفكير فيها ولكن الله عصمه من الوقوع فى الزلل وصرف الله عنه الفحشاء.

وإذا بالباب يفتح بقدرة الله فإذا بالزوج خلفه ويوسف يهرب ناحية الباب الذى فُتح.

وكانت المعتدية قد جذبته من قميصه فتمزق، فلما ظهر سيدها لدى الباب بادرته بالسؤال حتى تنفى التهمة عن نفسها.

وقالت لزوجها: ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا إلا أن يسجن أو عذاب أليم؟.

فهى لم تقل إلا أن يقتل، فهى ما زالت تحبه ولا تريد قتله.

هنا دافع يوسف الصديق عنه نفسه وقال: هى راودتنى عن نفسى.

وشهد شاهد من أهلها.

قال للعزيز: انظر لقميص يوسف إن رأيته قد تمزق من الأمام فهذا دليل على صدقها وكذبه، لأنها بذلك تقاوم عن نفسها، وإذا رأيته قد تمزق من الخلف فهو صادق وهى كاذبة، لأنه بذلك قد حاول الهرب وهى جذبته من الخلف أثناء هروبه.

فنظر العزيز لقميص يوسف فوجده ممزقًا من الخلف فعلم أن يوسف صادقًا وهى كاذبة، لكنه لم يكن غيورًا بالقدر الكافى فكل ما قاله: يوسف أعرض عن هذا واترك هذا الموضوع ودعك منه.

وأنت يا زوجتى استغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين.

ومع ذلك ظل يوسف مقيمًا فى القصر ولم يبعده عن عينها.

طار هذا الخبر عن طريق الخدم إلى النسوة فى المدينة فأصبح هذا الموضوع حديث الناس، وخصوصًا النساء، فكان هناك مجموعة من النسوة فى المدينة لا يتركن الحديث عن هذه الواقعة لحظة يحكونها فيما بينهن ويكررنها فقلن: امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبًا إنا لنراها فى ضلال مبين.

فكيف وهى زوجة وزير تنظر لخادم يقيم معها فى القصر ويعتبره زوجها كأنه ولده الذى لم ينجبه.

سمعت امرأة العزيز بقصة هؤلاء النسوة وما قلنه فى حقها فأرسلت إليهن وجهزت لهن متكئًا وآتت كل واحدة منهن سكينًا وفاكهة، وقالت لهن قطعن الفاكهة وكل منها، ونادت على فتاها يوسف، فلما خرج يوسف عليهن أكبرنه فى أعينهن وانبهرن به وفتن به أشد فتنة، وبدلاً من أن يقطعن الفاكهة أخذن فى تقطيع أيديهن دون أن يشعرن والدم يسيل.

وقلن: ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم.

هنا قالت لهم زوجة العزيز: هذا الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فامتنع، وإذا لم يفعل ما آمره لأسجننه أو ليكونا من الصاغرين.

قال النسوة: أطع سيدتك يا يوسف.

لكن يوسف الصديق أبى وقال: يا رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه، ويا رب اصرف عنى كيدهن حتى لا أصب إليهن وأكن من الجاهلين.

فاستجاب الله له وصرف عنه كيدهن إنه سميع قريب مجيب الدعوات، وهو الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويعفو عن كثير.

دخل يوسف الصديق السجن بمكر من زوجة العزيز لما يئست من إجابته لها وانكساره لما تريده.

فلما دخل يوسف ﷺ السجن دخل معه فتيان تعرّفا عليه وأحباه لما وجدا عليه علامات الصلاح والوقار.

ومرت الأيام ويوسف وصاحباه فى غياهب السجن وتعرّف يوسف عليهما كما تعرفا عليه، ولما وجدا من يوسف ﷺ الصدق والنبوغ والإحسان طلب كل واحد منهما من يوسف أن يفسر له رؤياه التى رآها وهو نائم.

فقال الأول: رأيت وكأنى أعصر العنب الذى ينتج عنه الخمر.

وقال الآخر: رأيت وكأنى أحمل فوق رأسى خبزًا تأكل الطير منه.

وقالا له: نبأنا بتأويل هاتين الرؤيتين لأننا نراك من المحسنين.

أراد يوسف ﷺ أن يعرفهما بنفسه ويدعوهما إلى التوحيد ثم يفسر لهما رؤياهما فقال لهما: لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما لأن ربى علمنى ذلك.

وأنا متبع لملة آباى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ولا ينبغى لنا أن نشرك بالله شيئًا، وذلك بسبب فضله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

يا صاحبى السجن هل الأرباب المتفرقون من حجارة وشمس وكواكب وغير ذلك مما يعبده الناس ويقدسونه ويجعلونه ربا لهم هل هؤلاء خير أم الله الخالق الواحد المصور الرزاق القهار؟ والحكم لله وحده، وأمر تعالى بعبادته هو فقط دون سواه من مخلوقاته، لأن هذا الدين وهو دين التوحيد هو خير الأديان، ومع ذلك فإن كثيرًا من الناس يجهلون ولا يعلمون.

وأخذ يوسف ﷺ يفسر لكل واحد منهما رؤياه.

فقال للأول الذى رأى أنه يعصر عنبًا:

سوف تخرج من السجن وتعمل خادمًا عند الملك وتسقيه الخمر.

وقال للآخر: سوف يُحكم عليك بالإعدام ثم تُصلب حتى يأتى الطير ويحط على رأسك فيأكل منها.

وقال يوسف ﷺ للذى ظن أنه ناج منهما: اذكرنى عند الملك، يقصد أن يحكى قصته لدى الملك عسى أن يفرج عنه، ولكن الشيطان وسوس لهذا الذى نجا ونسى أن يذكر يوسف عند الملك فلبث يوسف ﷺ فى السجن جراء ذلك بضع سنين.

ومرت الأعوام، وفى ليلة من الليالى نام الملك وجاءته رؤيا عجيبة، فهو قد رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع من البقر هزيل ضعيف، ورأى فى نفس الوقت سبع سنبلات خضر وأخر يابسات.

فنادى الملك لحاشيته وعلماء بلاطه: أن أحضروا لى من يفسر لى رؤياى، وجىء بمفسرى الأحلام والرؤى ومثلوا أمام الملك فقص عليهم ما رأى فعجزوا أن يفسروا له الرؤيا.

وقالوا: ما نحن بتأويل الأحلام بعالمين.

الآن تذكر الخادم الذى نجا من السجن أن هناك شابًا وراء القضبان هو وحده الذى يستطيع تفسير رؤيا الملك.

فقال للملك: أستطيع أن أذهب إلى من يؤول هذه الرؤيا فأرسلنى إليه، فوافق الملك عسى أن يأتى بنتيجة.

وجاء الخادم إلى يوسف وقال له: أيها الصديق أفتنا فى رؤيا، وأخذ يرويها له، وبعدما انتهى من روايتها قال له: أيها الصديق أفتنا فيها لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون، فما كان من يوسف ﷺ إلا أن قال له معبرًا له الرؤيا: اذهب إلى الملك وأخبره أن مصر سوف يأتى عليها سبع سنوات كلها رخاء وخير ويفيض النيل فيسقى الأرض وينبت الزرع ويبارك الله فى المحصول.

ثم يأتى من بعدهن سبع سنوات عجاف كلها جفاف وتصحر ولا يجد الناس ما يقتاتونه.

فالأولى والأصح أن تزرعوا سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله، حتى لا تصاب الحبوب بالتلف وهى محفوظة فى سنابلها خير من فصلها عن السنابل لأن فصلها يتلفها.

هكذا عبر الصديق عن رؤيا الملك وقدم الحل لهذه المشكله المستقبلية.

خرج الخادم إلى الملك وقص عليه ما سمع من يوسف، فما كان من الملك إلا أن قال: ائتونى به، فلما جاء رسول الملك إلى يوسف يبلغه أن الملك يريد مقابلتك والإفراج عنك.

رفض يوسف الخروج من السجن حتى تثبت براءته.

وقال لرسول الملك: إن براءتى عند النسوة اللاتى قطعن أيديهن فأخبر الملك بذلك.

وصل رسول الملك إلى سيده فأخبره بما حدث من يوسف، فلما علم الملك بذلك طلب من حراسه أن يأتوا بهؤلاء النسوة اللاتى ذكرهن يوسف، فلما جاءت النسوة قال لهن الملك: ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه؟.

قلن: حاش لله، ما علمنا عليه من سوء.

وجاءت امرأة العزيز وقالت: الآن أيها الملك ظهر الحق، أنا التى راودته عن نفسه فرفض وأبى ذلك، ولم يضعف أمام كل المغريات وفضل أن يسجن عن أن يرتكب الفاحشة ويستجيب لى، وأنا أعترف أن يوسف صادق وأن الله لا يهدى كيد الخائنين، وأنا لست بريئة، فنفسى مذنبة، وطبيعة النفس أنها تأمر صاحبها بالسوء وربى غفور رحيم.

فلما شهدت النسوة هذه الشهادة التى تبرئ يوسف من هذا الموضوع سُر الملك سرورًا عظيمًا لأنه سيتعرف على رجل أمين صادق نافع لغيره.

فأمر الملك بإحضار يوسف الصديق، وعلى الفور جاءوا به إلى الملك فـقال له: يا يوسف لقد ظهر الحق وثبت أنك برىء وقد سجنت ظلمًا وبهتانًا فإن كيد النساء عظيم، والحمد لله الذى أخرجك من السجن حتى ننتفع بك هنا، فأى الوزارات تريد؟.

قال يوسف: أريد أيها الملك أن أكون على خزائن الأرض، فإن أرض مصر لن تجد من يحافظ على أموالها ومن هو أعلم بهذا الأمر منى.

وافق الملك على تعيين يوسف الأمين وزيرًا للمالية حينذاك.

هكذا يمكن الله ليوسف بعد أن كان سجينًا خلف القضبان الحديدية، وهكذا فإن اليسر يولد من بطن العسر، فسبحان الذى يصرف الأمور كيف يشاء.

والله تعالى لا يضيع أجر المحسنين، ومن يتفكر فى الآخرة يجد أن الله قد أعد للذين آمنوا وكانوا يتقون فى الحياة الدنيا أجرًا عظيمًا.

تمكن يوسف من الحكم فى أرض مصر وسارت البلاد فى عهده على ما يرام ومرت السبع سنوات الرخاء وأعقبهن السبع الشداد، ولم تكن السبع الشداد فى مصر وحدها بل كانت أيضًا فى فلسطين حيث أبواه وإخوته الذين يقيمون هناك.

فما إن أصاب الناس القحط والجدب حتى ارتفعت الأسعار وضاقت المعيشة ولم يجد الناس ما يأكلونه من حبوب وأغذية.

سمع الناس فى كل مكان أن هناك عزيزًا بمصر يبيع الأغذية والحبوب بالسعر القديم فتوافد الناس عليه.

واشترط هذا العزيز أن يأخذ الفرد حمل بعير وأن يأتى بنفسه لاستلامه.

فى تلك الأثناء ألم بيعقوب وبنيه ما ألم بالناس فخرجوا متجهين إلى مصر قاصدين عزيزها، وهم لا يعرفون أن هذا العزيز الذى يوزع الأقوات هو يوسف أخوهم.

فلما وصلوا مصر ودخلوا على يوسف عرفهم وهم لم يعرفوه، فجهز يوسف الصديق كل واحد منهم ببعيره وسألهم: إن كان لهم إخوة آخرين فأجابوه أنه كان هناك أخوان، الأول توفى والآخر اسمه بنيامين مع أبيه لم يأت معهم لأنه أصغرهم ولأن أباه يخاف عليه من السفر.

قال لهم يوسف: يجب أن تأتوا بأخيكم هذا حتى يأخذ حمله المقرر له، وإذ لم تأتونى بأخيكم هذا فسأمنع منكم الكيل المرة القادمة.

قالوا: سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون ما بوسعنا لكى يأتى معنا.

وقال يوسف الصديق للخدم: ضعوا بضاعتهم فى رحالهم هذه التى أحضروها معهم لكى يشتروا بها الطعام المرة القادمة.

حتى إذا ما رجعوا إلى أبيهم وجدوها ردت عليهم حتى يرجعوا مرة أخرى.

وغادر أبناء يعقوب مصر راجعين إلى فلسطين، فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا: يا أبانا إن لم ترسل معنا أخانا المرة القادمة فلن يعطونا كيلاً وإذا أرسلت أخانا معنا فسيكون فى حفظنا ولن نضيعه.

فرد يعقوب عليه السلام عليهم قائلاً: هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه يوسف من قبل ووعدتمونى بأن تحافظوا عليه ولم تفعلوا وضيعتموه حتى أصابنى الحزن فأصبحت كظيمًا لأنكم حرمتمونى من فلذة كبدى يوسف وابيضت عيناى من الحزن ومن كثرة البكاء عليه.

فتح أخوة يوسف متاعهم فتفاجئوا بأن بضاعتهم قد رُدت إليهم ووجدوها فى رحالهم التى أتوا بها من مصر.

قالوا: يا أبانا ما نبغى، هذه بضاعتنا رُدت إلينا، ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير.

قال يعقوب: لن أرسل بنيامين معكم حتى تعاهدونى على أن تحافظوا عليه، فلما آتوه عهدهم قال يعقوب الله على ما نقول وكيل، وخاف عليهم يعقوب من الحسد ومن العين لأنها حق، والعين التى تحسد من الممكن أن تدخل القبر من شدة الحسد بتمنى زوال النعمة عن صاحبها.

فقال لأولاده: لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة، وما أغنى عنكم من الله من شىء، فالحكم لله وحده، وأنا أتوكل عليه وعليه يتوكل المتوكلون.

سافر أبناء يعقوب إلى مصر تاركين أباهم فى فلسطين حتى وصلوا إلى يوسف، فلما دخلوا عليه لكى يكتالوا ويزدادوا حمل بعير رأى يوسف أخاه معهم فسعد به سعادة بالغة وضمه وآواه إليه وعرفه بأنه أخوه.

وقال له: يا أخى لا تحزن على ما فعلوه معك من معاملة سيئة، وإنى أنا أخوك فلا تبتئس منهم.

أراد يوسف عليه السلام أن يأخذ أخاه معه فقام بحيلة ذكية بأن جهزهم بجهازهم وأعطاهم ما يريدون وزيادة، ثم وضع السقاية فى رحل أخيه، وهموا بالمسير، فلما تحركوا جاء المنادى ينادى عليهم: يا أصحاب العير أنتم سارقون.

فقالوا: لم نسرق شيئًا وأنتم تعلمون أننا لم نفسد فى الأرض وما كنا سارقين.

فقال الخدم: ما جزاؤه إذًا إن وجد هذا الشيء المسروق وهو سقاية الملك فى حمل أحدكم أو متاعه؟.

قالوا: إن وجد هذا الشيء المسروق فى متاع أحدنا فجزاؤه هو جزاؤه، فكذلك نجزى الظالمين فى شريعة يعقوب عليه السلام.

فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء بنيامين فلم يجدوا شيئًا، حتى إذ ما فتشوا فى وعاء بنيامين وجدوه فتفاجأ إخوة يوسف بهذا الموقف العصيب وعلموا أن بنيامين قد سرق.

فقالوا: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ــ يقصدون يوسف عليه السلام.

فقد قيل إنه قد أخذ صنمًا وكسره، وقيل: إنه قد أخذ بيضة وأعطاها لفقير.

فلما سمع يوسف منهم ذلك أسرها فى نفسه ولم يبدها لهم.

وقال: أنتم شر مكانًا والله أعلم بما تصفون، لكنه قال ذلك فى نفسه ولم يقلها جهارًا.

قال إخوته: يأيها العزيز، إن له أبًا شيخًا كبيرًا طاعنا فى السن، ولو علم بفقده فسوف يزداد حزنًا على حزن تقترح أن تأخذ أحدًا منا بدلاً منه ونحن نراك من المحسنين.

فهم يريدون بذلك استمالة قلبه كى يرضى باقتراحهم، فرد عليهم يوسف: معاذ الله أن نأخذ أحدًا غير الذى وجدنا السقاية عنده وإذا فعلنا غير ذلك فنحن إذن ظالمون.

يئس أبناء يعقوب من تلبية مطلبهم.

فقال كبيرهم: أنا لن أرجع معكم، كيف أواجه أبى؟ وقد أخذ علينا العهد والميثاق ألا نضيع أخانا مثلما ضيعنا يوسف من قبل، وسأمكث هنا حتى يحكم الله لى أو يأذن لى أبى بالرجوع.

عودوا يا إخوتى إلى أبيكم وقولوا له إن ابنك بنيامين سرق سقاية الملك، وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين، وإن لم تصدقنا يا أبانا فاسأل القرية التى كنا فيها واسأل العير التى أقبلنا فيها وإنا يا أبانا هذه المرة لصادقون فى ما نقول.

فقال لهم يعقوب ﷺ، بل سولت لكم أنفسكم أمرًا فصبر جميل، عسى الله أن يأتيني بيوسف وأخويه جميعًا، فالله عليم بحالي وحكيم في أفعاله.

وترك يعقوب أولاده واعتزلهم وأصيب بالعمى من الحزن والأسف على يوسف.

فقالوا له: يا أبانا إنك تستمر على ذكرك ليوسف وأسفك عليه حتى تهلك وتموت، فهون عليك نفسك.

فقال لهم: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون.

يا بني اذهبوا وابحثوا عن يوسف وأخيه ولا تكونوا من اليائسين من رحمة الله فإن الذي ييأس من رحمة الله يكون كافرًا.

في تلك الأثناء كان القحط متفشيًا في البلاد، وليس عند أولاد يعقوب ما يبادلون به من بضاعة إلا بضاعة مزجاة ليست على قدر من الجودة، ومع ذلك ذهبوا بها إلى يوسف وقالوا له: لقد أصبنا بالقحط والجدب والضر ولا نملك إلا بضاعة رديئة فنرجو منك أن توفي لنا الكيل أو تتصدق علينا صدقة يجازيك الله عليها.

فبادرهم يوسف بالسؤال: هل تتذكرون ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون؟.

عندئذ عرفوا أن هذا العزيز الذي يكرمهم هو يوسف ﷺ.

فقالوا له: أإنك لأنت يوسف؟ قال نعم أنا يوسف وهذا أخي قد مَنَّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين.

فقالوا له: تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين.

فقال لهم يوسف: لا عتاب عليكم اليوم وأدعو الله أن يغفر لكم وهو أرحم الراحمين.

عودوا يا إخوتي إلى أبي وخذوا قميصي هذا وألقوه على وجهه، فإذا فعلتم ذلك فسوف يرجعه الله بصيرًا بعد أن يشم رائحتي من خلال قميصي، ثم تعالوا بجميع الأهل إلى لاكرمكم.

وعندما غادروا راجعين إلى أبيهم أخذوا معهم قميص يوسف، وما إن اقتربت العير من يعقوب حتى شم رائحة يوسف الذكية.

فقال: إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون.

قالوا: تالله إنك لفى ضلالك القديم.

فجاء البشير وألقى القميص على وجه يعقوب فعاد بقدرة الله بصيرًا يرى النور.

هنا قال لهم يعقوب: ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون.

طلب أبناء يعقوب بعدما انكشف الحق وظهر أن لهم الله واعترفوا بأنهم كانوا خاطئين، فوعدهم يعقوب بالاستغفار لهم، لأنه يعلم أن الله هو الغفور الرحيم.

وذهبوا جميعًا إلى مصر ودخلوا على يوسف، فيا له من لقاء حار تقشعر منه الأبدان وتدمع منه العيون ويندى له الجبين.

إنه لقاء الأب المكلوم الذى حُرم من أعز أولاده فترة طويلة من الزمن قاسى خلالها أشد أنواع الألم... ألم الفراق عن الحبيب.

فرح يوسف بأبويه وإخوته وآوى إليه أبويه وقال لهم: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين، وأجلس يوسف أبويه على كرسى العرش فنزلوا وسجدوا له جميعًا على سبيل التكريم.

وكان السجود على سبيل التكريم مباحًا حينذاك حتى حرم فى شريعة «محمد».

وقال يوسف لأبيه: أتذكر يا أبى رؤياى التى قصصتها لك من قبل، فهذا الذى حدث من سجودكم لى هو تأويل رؤياى، وقد أكرمنى الله وأخرجنى من السجن وجاء بكم من البادية إلى الحضر، من بعد أن أوقع الشيطان بينى وبين إخوتى، فالله لطيف لما يشاء وهو العليم الحكيم.

ودعا يوسف عليه السلام ربه أن يتوفاه مسلمًا وأن يلحقه بالصالحين بعد أن اعترف بكرم الله ومننه عليه، من إيتائه الملك وتعليمه تأويل الأحاديث.

وبعد: لماذا كانت قصة يوسف من أحسن القصص؟.

يقول ابن الخطيب: «وقد وصف المولى قصة يوسف بأحسن القصص ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ (يوسف: ٣) أى أوثقه وأصدقه.

وإنما كانت قصة يوسف من أحسن القصص لأن كل قضية منها كانت عاقبتها يسر وخير!.

فإن أولها: رميه فى الجب، وهو مهلكة فكانت عاقبته سلامة وأمن.

وثانيـــها: بيعه ليكون عبدًا فاتُّخذ ولدًا.

وثالثـــها: مراودة امرأة العزيز له ليكون فاسقًا، فعصمه الله تعالى وكان من المخلصين!.

ورابعـــها: دخوله السجن ليكون ذليلاً فخرج منه عزيزًا، بل ملكًا!.

وخامـــسًا: ظفر أخوته به أولاً، فظفر بهم آخرًا!.

وسادسها: عمى أبيه فرد الله تعالى بصره إليه!.

وســـابعًا: فراق أبيه له ولأخيه واجتماعه بهما!.

فكانت هذه القصة فى سائر مواطنها من أسوأ القصص ابتداء ومن احسنها انتهاء!.

قصة أيوب عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

سمع إبليس حديث الملائكة عن أيوب ﷺ وكيف أن الأرض ليس عليها من هو أعبد لله منه.

فأيامه كلها عبادة لرب العالمين، وشكر له على ما رزقه به.

وساء إبليس ما سمع، فعقد عزمه على أن يغويه، ويزين له الدنيا ويزهده فى عبادة الله، ولكنه لما اقترب منه، ووسوس إليه من وراء أذنه، لم يجد إلا أذنا صماء، وقلبًا مغلقًا عن الهوى والمعصية، ووجده من عباد الله المخلصين، الذين ليس له عليه سلطان، فحزن حزنًا شديدًا، ورجع إلى الله، ووقف منه الموقف الذى كان يقفه منه قبل أن يطرده من رحمته، قال: يا رب... عبدك أيوب الذى يعبدك ويقدسك ويهتف قلبه بذكرك، ويلهج لسانه بتسبيحك، ما يعبدك تطوعًا من نفسه أو دونما مقابل، وإنما يعبدك فى مقابل ما أنعمت به من مال وبنين، وطمعًا فى أن تبقى له على ماله وتحفظ له ما أسبغت عليه من نعم... فاحرمه يا رب من هذه النعم وجرده من المال والبنين لتراه وقد خرس لسانه عن ذكرك، وأعرض عن طاعتك.

فقال الله تعالى: إن أيوب عبد مؤمن خالص الإيمان لا يعبدنى إلا لما يراه من حق العبادة، ولا يذكرنى إلا لما يعرفه من حق الذكر، عبادة وذكر مجردان من حب الدنيا وبريئان من المطامع والأغراض، ولكن ليكون أيوب قبسًا وهاجًا فى الإيمان، ومثلاً عاليًا فى الصبر واليقين، فقد أبحتك ماله وما أنعمت به عليه، افعل به ما تريد ثم انظر إلى ما تنتهى إليه.

فانطلق إبليس، وجمع الشياطين من شيعته وأوليائه ونجحوا فى إهلاك ثروة أيوب، وجعله صفر اليدين، ثم تمثل إبليس لأيوب شيخًا حكيمًا مجربًا وقال له:

إن النار قد أتت على ثروتك وذهب مالك، وتخلى عنك ربك الذى تعبده ويلهج لسانك بذكره.

وظن إبليس أنه بذلك سيزحزح أيوب عن إيمانه ولكن أيوب كان أقوى إيمانًا وأشد يقينًا بأن الله لن يتخلى عنه، قال:

الثروة التى أتت عليها النار كانت وديعة عندى استردها الله بعدما نعّمنا بها دهرًا، فلله الحمد معطيًا وسالبًا، راضيًا وساخطًا، نافعًا وضارًا، هو مالك الملك، يؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء.

ثم خر لله ساجدًا، وترك إبليس خزيان ينظر بحسرة؟ ورجع إبليس إلى الله خائبًا وحاول أن يحوك للشر ثوبًا جديدًا، قال للمولى عز وجل:

يا رب إن أيوب، وإن كان لم يقابل زوال النعمة وما حل به من مصيبة بالصبر، فما ذلك إلا أنه يطمعم فى أن يشتد عوده ويعود إليه ما ذهب من ماله وثروته بفضل أبنائه الكثيرين المحيطين به، فسلطنى يا رب عليهم، أفعل بهم ما يكره، وساعتها سيصير أشد ما يكون كفرًا ومعصية، فلا أشد من فتنة الولد ولا أدعى لنفاد الصبر من الفجيعة فيهم.

فأجابه الله سبحانه وتعالى: لقد سلطتك على ولده، ولكنك لن تنقص ذرة من إيمانه ولن يفقد قطرة واحدة من صبره وعزمه.

وانطلق إبليس، وجمع إليه شياطينه وكل من هم من شيعته، وأحكموا تدبيرهم، وذهبوا إلى حيث يقيم أبناء أيوب فى قصرهم المنيف، وزلزلوه حتى تصدع بنيانه وسقطت حيطانه فوق رؤوسهم وهلكوا جميعًا تحت أنقاضه.

ثم ذهب إبليس إلى أيوب، وتمثل له فى صورة رجل يواسيه وقال له:

أرأيت بعدما فنى كل أبنائك!... إن الله لم يكافئك على عبادتك وعلى ذكرك، ولم يرعك حق رعايتك، فبكى أيوب، وقال:

الله أعطانى، والله أخذ منى... فسبحانه وتعالى، له الحمد معطيًا وآخذًا، ساخطًا وراضيًا.. نافعًا وضارًا، ثم خر لله ساجدًا، وترك إبليس يكاد يتمزع من الحنق والغيظ، ورجع إبليس مرة أخرى إلى الله، وقال: يا رب... لقد ذهب المال عن أيوب كما ذهب عن أولاده، ولكنه لا يزال بصحة وعافية، ولا يزال يعبدك أملاً فى أن يعود ماله ويعود ولده، فسلطنى على جسمه ورخص لى فى أن أنال من عافيته، وأنا واثق من أن لو مسه الداء وأنهكه المرض، فسيهمل عبادتك، ويخلع ثوب طاعتك، وينشغل بأسقامه عن ذكرك.

فأراد الله عز وجل أن يجعل من أيوب على مدى الدهر المثل الأعلى فى الإيمان بالله والصبر على المكاره، وأن تكون قصته عبرة للصابرين وعزاء للمكرمين، لذلك قال لإبليس:

لقد سلطتك على جسده، ولكن حذار أن تقترب من روحه، ولسانه وعقله وقلبه، ففيها سر إيمانه ومظهر دينه وعرفانه، وذهب إبليس، وجمع أعوانه، ودبروا أمرهم فى الكيد لأيوب والتسلط عليه، حتى نجحوا فى إصابته بالمرض الشديد، ولكن أيوب كان كلما ازداد عليه المرض، ازداد صبرًا وشكرًا لله وازداد إيمانه ويقينه بالله الواحد القهار القادر على كل شيء، ومرت الأيام والسنون وازداد المرض شدة، حتى هزل جسد أيوب وأصبح جلدًا على عظم، وفر من حوله الصديق، وجانبه الرفيق، ولم يعد حوله أحد إلا زوجته التى ظلت إلى جانبه، تحنو عليه وترعاه، حامدة راضية، مؤمنة محتسبة.

أما إبليس فقد كان أعياه أمر أيوب.. فرغم كل ما أصابه لم يفتر لسانه عن ذكر الله، ولم يتزعزع قلبه عن الإيمان بالله.

قال له أحد شياطينه: أين مكرك وحيلتك وتلطفك فى الوسوسة.. هل بطل كل ذلك ولم يفلح مع أيوب؟! لقد أخرجت آدم أبا البشر من الجنة، فكيف فعلت ذلك؟ ومن أين أتيته؟ قال: أتيته من قبل امرأته حواء فقال له شيطانه: عليك بها إذن! وكأن إبليس كان ينساها... ومن فوره ذهب إليها ووسوس لها من وراء أذنها وقال لها: أين زوجك... أين من كان يدعى أيوب.. أهو ذلك الراقد على فراشه، لا هو ميت فينعى ولا هو حى فيرجى... أين ذهب شبابه وأين ذهبت صحته وعافيته والنعمة الضافية التى كانت لكما هل تخلى عنه ربه؟!.

ونجح إبليس فى أن يثير لديها كوامن الأحزان، حتى أدركها الضجر، وانساب إلى قلبها اليأس... فذهبت إلى أيوب وقالت: حتى متى يعذبك الله؟!... أين المال... أين العيال... أين الصديق... أين شبابك وعزك القديم؟!! فقال لها: لقد سول لك إبليس أمرًا؟... أراك تبكين على عز فات وولد مات، بل أراك تقنتين من رحمة الله!.

هلا دعوت الله أن يكشف حزنك ويزيح عنك البلاء؟.

قال: كم مكثت فى الرخاء؟.

قالت: ثمانين سنة.

قال: وكم لبثت فى البلاء؟.

قالت: سبع سنين.

فقال: أستحى من الله أن أطلب رفع بلائى، وما قضيت فيه مدة رخائى! ولكن يخيل إلىَّ أنك قد بدأ إيمانك يضعف، وبدأ قلبك يضيق بقضاء الله... والله الذى لا إله إلا هو لئن عادت قوتى لأضربنك بالسوط... وحرام علىَّ بعد اليوم أن آكل من يديك طعامًا أو شرابًا... فاغربى عن وجهى، وحتى يقضى الله أمرًا كان مفعولاً.

ولما أصبح أيوب وحيدًا... واشتدت آلامه، وزادت عليه وطأة المرض، فزع إلى الله، لا ساخطًا ولا مبرمًا، بل داعيًا متحننًا... قال: يا رب... إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين.

فاستجاب الله دعاءه، وأوحى إليه: أن اركض برجلك ينفجر لك نبع الماء، فاشرب منه واغتسل به، تعد إليك صحتك، وترد إليك قوتك.

وما أن شرب واغتسل بالماء، حتى عادت صحته ورُدت إليه قوته.

وكانت امرأته قد رق قلبها له، ولم تطاوعها نفسها الكريمة أن تتركه وشأنه، وقد لازمته ولم تفارقه منذ اليوم الأول المرض، فعادت إليه، فرأت عجبًا: رأت شابًا مكتمل الشباب: غض الإهاب وافر الصحة والعافية، فعانقته، وحمدت الله وسجدت لله شكرًا على الصحة التى أنعم بها مرة ثانية على زوجها أيوب، الذى ما توانى لحظة عن ذكر الله، وما نفد صبره على ما ابتلاه الله به.

قصة يونس عليه السلام

هو النبى يونس بن متى، ينتهى نسبه إلى إبراهيم عليه السلام وقد أرسله إلى قرية فى بلاد العراق مواجهة للموصل وهى قرية تدعى «نينوى» وكان عددهم مائة ألف أو يزيدون، وهذا العدد فى ذلك الوقت كان كثيرًا جدًا فكيف يجتمع بكل هؤلاء! وكيف يكلمهم فى أمر دعوة الله تعالى؟ جاء يونس عليه السلام حاملاً فى قلبه هَمَّ الدعوة إلى الله وخائفًا من إعراض قومه وتكذيبه وإذا خاب ظنه وباءت مهمته بالفشل فسوف يحل على قومه عذاب شديد.

لم يأخذ يونس عليه السلام وقتًا كبيرًا حتى ذهب إليهم يدعوهم جميعًا إلى الدخول فى دين الله أفواجًا حتى يأمنوا غضب الله عليهم إن هم آمنوا ولم يكفروا.

مكث يونس عليه السلام يدعو قومه علانية ويحذرهم من عقاب الله.

فقال لهم: يا قومى آمنوا بالله وحده واتركوا عبادة غيره.

فما وجد من قومه إلا التكذيب والإعراض والرفض المطلق لدعوته.

حاول يونس مرة أخرى أن يدخل الإيمان فى قلوبهم حتى تصدقه عقولهم لكنهم أبوا كل ذلك.

وجد يونس عليه السلام من قومه الكفر بدعوته بعدما عرض عليهم الأمر كثيرًا.

فيئس من دعوتهم وأنذرهم بأن العذاب قادم بعد ثلاثة أيام، وخرج يونس من القرية مغاضبًا من قومه لما رأى منهم ذلك الإعراض وهذا الصد عن سبيل الله.

لكن يونس عليه السلام عندما خرج من القرية لم يخرج بأمر من الله بل نسى ذلك، وخرج دون أن يأذن له الله فأراد الله أن يلفت نظره إلى هذه السهوة التى وقع فيها، وهى بحق نبى يكون فيها نظر.

فما إن غادر يونس عليه السلام حتى وصل إلى سفينة فى البحر مشحونة عن آخرها وركب مع الراكبين، وتحركت الفلك حتى دخلت فى عرض البحر لكن الشخص عليها كان ثقلاً فأراد قبطانها أن يخففوا الحمل الثقيل حتى لا يغرقوا جميعًا فساهموا[١] فجاء السهم أو القرعة على يونس، فنظروا إليه فإذا هو بشاب جميل صغير السن فقالوا لا

---

(١) **ساهموا**: اقترعوا برمى السهم.

نريد إلقاء هذا الشاب الذى تبدو عليه علامات الصلاح والتقوى فاقترعوا مرة أخرى فجاءت القرعة على نفس الشاب، فاقترعوا الثالثة فجاءت كذلك على يونس، فلم يجدوا من ذلك بدا أن يلقوه حتى ينفذوا أنفسهم ويخف الحمل الثقيل، فألقوه فى اليم[١].

لكن رعاية الله لعبده يونس لم تتخل عنه، وظلت ملازمة له، فأرسل الله له حوتًا ضخمًا، وهذا الحوت قد يكون سمكة كبيرة ابتلعته فى جوفها بإذن من الله فأوحى الله إلى الحوت ألا تأكل له لحمًا ولا تكسر له عظمًا.

وعاش يونس فى بطن الحوت مدة من الزمن، قيل: ثلاثة أيام، وقيل: أربعين يومًا، أخذ خلالها يونس عليه السلام يسبح لله بعد أن ألهمه الله التسبيح وأسمعه الله تسبيح المخلوقات، وعاش يونس فى الظلمات ونادى:

﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

فاستجاب الله له وكشف عنه الظلام، وأوحى إلى الحوت أن يقذفه على الشاطئ فى مكان خالٍ من الأشجار ووصفه الله بالعراء.

خرج يونس من بطن الحوت وهو فى غاية الإعياء، فقد انسلخ جلده وأصبح الهواء يؤذيه فأنبت الله له شجرة من يقطين[٢] أظلته من عوامل الجو وأمدته برائحة ذكيه يأتنس بها، ظل يونس على ذلك فترة ينعم فيها برحمة الله به، وأرسل الله أنثى الوعل يشرب منها اللبن.

لما خرج يونس من قريته مغاضبًا وظن أن الله لن يضيق عليه لأنه لم يستأذنه فى الخروج وركب فى الفلك وابتلعه الحوت وألقاه فى العراء، فى تلك الأثناء كان أهل القرية يترقبون ما سيحدث لهم، فرأوا غمامة سوداء تظلهم فتيقنوا أن العذاب واقع لا محالة، فاجتمعوا وتشاوروا فى الأمر فقرروا أن يتوبوا وأن يعودوا إلى ربهم وأن يؤمنوا بدعوة يونس، فتجمعوا ولجئوا إلى الله بالدعاء، وأخذوا معهم النساء والأطفال وأخذوا يتضرعون إلى الله بالدعاء وآمنوا، فاستجاب الله وقبل توبتهم وصرف عنهم العذاب.

---

(١) اليم: البحر.

(٢) يقطين: شجر القرع.

وبذلك قد نفعهم إيمانهم، وهى القرية الوحيدة التى نفعها إيمانها، وهكذا فإن من يؤمن بالله تعالى يأمن من عذابه.

وعندما سبح يونس ربه وهو فى ظلمات ثلاث: ظلمة الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل استجاب الله له ونجاه من الغم وأطعمه ورعاه وسقاه، وهذا جزاء الصالحين من النبيين والمرسلين، سلام عليهم وعلى نبينا محمد ﷺ.

قصة شعيب عليه السلام

أرسل الله النبى «شعيبًا» عليه السلام إلى قوم مدين، وينتمى إلى «مدين» الذى ينتهى نسبه إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام.

كان قوم مدين أشرارًا، يقطعون الطريق على القوافل التى تمر بهم ويأخذون منها الإتاوات ويأخذون منها العشر كراهية.

فجاء إليهم شعيب عليه السلام وقال لهم: يا قومى اعبدوا الله الواحد وذروكم من عبادة غيره، ويا قومى أوفوا الكيل والميزان، وما لكم تغشون الناس فى تجارتكم؟ ألم تعلموا أن الله مطلع عليكم وعلى غشكم للناس.

يا قومى لا تفسدوا فى الأرض بعد أن أصلحها الله عز وجل، وإذا امتنعتم عن الإفساد فى الأرض فذلك خير لكم.

أخذ شعيب عليه السلام يجادل قومه بالحكمة والموعظة الحسنة بأن قال لهم: إنى أراكم بخير، ويا قومى إنى أخاف عليكم من عذاب يوم القيامة الذى يحيط بالكافرين ويحاسبون على أعمالهم وجرائمهم ثم يقذفون فى جهنم وبئس المصير.

يا قوم لا تهددوا المؤمنين ولا تصدوهم عن سبيل الله وترجعوهم كفارًا بعد أن كانوا مؤمنين.

يا قوم لماذا ترفضون طريق الهداية والاستقامة وتقبلون على الانحراف والابتعاد والاعوجاج عن طريق الهدى.

يا قومى يجب أن تتذكروا أنكم كنتم قليلاً فكثركم الله، ويجب عليكم أن تنظروا إلى الأقوام التى سبقتكم، وكيف أخذهم الله بالعذاب جزاء تكذيبهم وكفرهم برسل الله.

مرت الأيام وشعيب عليه السلام يجادل قومه بالحكمة والموعظة الحسن فآمن له عدد من أهل مدين بينما ظل عدد كبير منهم على الكفر والضلال.

فما كان من الذين استكبروا وكفروا إلا أن قالوا: يجب أن نخرجك يا شعيب من قرية مدين أنت والذين آمنوا معك، جزاء لإيمانكم واتباعكم الصلاح والتقوى والإصلاح فى الأرض، وإذا رجعتم وعدتم إلى ملتنا فسوف نسامحكم ولا نخرجكم.

قال شعيب عليه السلام: ما هى ملتكم التى تتمسكون بها؟! إنكم تعبدون الأشجار وعُرفتم بين الناس بأنكم أصحاب الأيكة، تعبدونها وتسجدون لها من دون الله، فهل هذا يعقل من خلق الأيكة؟!! إنه الله الذى رفع السماء بغير عمد وأجرى الأنهار وسخَّر البحار وأنزل الأمطار فأنبت لكم هذه الأيكة التى تعبدونها من دونه.

إننا إن عدنا إلى ملتكم هذه بعد أن آمنا بالله ونجانا من الوقوع فيها فإننا بذلك قد افترينا على الله كذبًا، ولن نعود إلى ملتكم مرة أخرى.

ودعا شعيب ربه قائلاً: ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين.

أخذ الكفار يستهزءون بشعيب والذين معه، وقالوا له: يا شعيب هل صلاتك التى تصليها لله كل يوم تأمرك أن نترك عبادة الشجر وهى عبادة آبائنا، وتتدخل هذه الصلاة فى أمور دنيانا من معاملات تجارية وموازين وأمانة فى البيع والشراء، إننا نطفف الكيل، فإذا اكتلنا على الناس نستوفى، ثم إذا كلناهم أو وازناهم نخسر هذا الكيل وهذا الوزن.

أمعقول أن تحكم هذه الصلاة بيننا بهذه الصور المثالية التى لا نريدها؟.

وأخذوا يسخرون قائلين: إنك أنت الحليم الرشيد، نعم لقد قالوها سخرية واستهزاء به عليه السلام.

لم يسكت شعيب عن جدالهم وقال لهم: يا قومى أنا لا أريد شيئًا إلا الإصلاح على قدر جهدى وعلى قدر إيمانى بالله وعلى قدر استطاعتى، وأنا لا أكون موفقًا إلا إذا أراد ذلك الله.

ويا قوم لا يحملنكم مخالفتكم وبغضكم للإيمان بدعوتى أن تستمروا على ضلالكم وكفركم وإذا حدث ذلك فإن عذاب الله سوف ينزل بكم مثلما نزل بقوم هود ونوح وصالح، وما نزل بقوم قريبين منكم هم قوم لوط.

يا قومى استغفروا ربكم يغفر لكم ذنوبكم وتوبوا إليه يقبل توبتكم.

لم يسمع أهل مدين لشعيب وزادوا فى عنادهم وتكذيبهم بأوامر ونواهى الله عز وجل وقالوا: لئن اتبعنا شعيبًا سنخسر كثيرًا، والأولى أن نظل على عنادنا وسخريتنا منه وممن آمن به.

فقالوا له: يا شعيب إننا لا نفهم كلامك فهو مبهم[١] ولولا أهلك لقتلناك ولقضينا عليك، فرد عليهم شعيب: يا قومى تخافون من أهلى ولا تخافون من ربى فالله محيط بكم وبما تعملون فقالوا له: يا شعيب إننا لن نؤمن بك، فإن كنت صادقًا فأنزل علينا العذاب من السماء.

الآن جاء وعد الله لمن عاند وكابر وكفر، وأرسل عليهم عذابًا أليمًا بأن منع الريح والهواء أن تهب عليهم فضاقت أنفسهم.

وبينما كانوا فى بيوتهم متضايقين لا يطيقون ملابسهم إذ بغمامة خارج مدين تأتى وتستقر فذهبوا جميعًا ووقفوا تحتها حتى يظللوا بها، فأرسل الله جبريل عليه السلام فصاح فيهم صيحة عظيمة وأنزل الله عليهم من الغمامة شررًا ونارًا أحرقتهم ولم تبق منهم أحدًا.

وسمى الله هذا اليوم بيوم الظلة الذى أهلك فيه أصحاب الأيكة[٢].

ونجا الله عز وجل نبيه شعيبًا والذين معه من المؤمنين، وناداهم شعيب بعد هلاكهم: يا قوم ألم أبلغكم رسالات الله؟! لكنكم أعرضتم وأدبرتم وسخرتم من أهل الإيمان، فاليوم لن آسى[٣] عليكم، ومن يأسى على القوم الذى كفروا وظلموا!!.

---

(١) مبهم: غير واضح أو غامض.

(٢) الأيكة: الشجرة.

(٣) آسى: أحزن.

قصة كليم الله موسى عليه السلام

هو: موسى بن عمران، ينتهى نسبه إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، عليهم السلام، وهو كليم الله وذكرت قصته فى القرآن فى ثلاثة وسبعين موضعًا.

لما جاء يوسف الصديق ﷺ إلى مصر وتربى فى قصر العزيز ودخل السجن ظلمًا، ولما رأى الملك رؤياه وفسرها له يوسف ﷺ وجعله على خزائن الأرض، ورأى الملك الكفاءة والأمانة فى يوسف ترك له حكم مصر يتصرف كيف يشاء، وأصبح هو ملكًا صوريًّا وجاء إخوته وأبوه وأقاموا بمصر، وكانوا عددهم حينذاك ستة وثمانون فردًا، فتكاثروا فى مصر وكثر عددهم شيئًا فشيئًا، وأصبح لهم نفوذ ومال وفير، وملكوا الضياع والأراضى وأصبح منهم التجار الأثرياء وخصوصًا فى تجارة الذهب.

ولى عهد فرعون مصر الذى كان يعيش أيام سيدنا يوسف وجاء فرعون غيره ثم تعاقبت الفراعنه التى تحكم مصر.

وبنو إسرائيل[1] يزدادون فى العدد وفى المال حتى جاء فرعون اسمه (منفتاح) وكان ظالمًا طاغيًا ومتجبرًا، لاحظ فرعون أن بنى إسرائيل قد زاد نفودهم وقد بلغ عددهم مئات الآلاف بعد أن كانوا قليلين، وزاد ثراؤهم وغناهم الذى ربحوه من التجارة مما أدى إلى ازدياد نفوذهم وكان هذا الفرعون متجبرًا عاليًا فى الأرض لا يهمه أحد، فأخذ يضطهد بنى إسرائيل وأمر بأن يعملوا جميعًا عبيدًا وخدمًا للأقباط المصريين.

وذات ليلة رأى فرعون فى منامه أن نارًا تخرج من بيت المقدس وتتجه إلى بيوت المصريين فتحرقها، ولا تحرق بيتًا من بيوت بنى إسرائيل، فتعجب لهذه الرؤيا التى أفزعته، فأحضر الكهنة والمنجمين فى عصره وعرض عليهم ما رأى.

فقالوا له: إن طفلاً سيولد من بنى إسرائيل سوف يكون زوال ملكك على يديه.

بعدما سمع فرعون من الكهنة هذا التقرير وهذا التفسير للذى رآه فى منامه أصدر أوامره بذبح كل مولود يولد لبنى إسرائيل من الذكور، وأصبح فرعون يقتل الأبناء من

---

(١) إسرائيل: يعقوب عليه السلام.

الأولاد ويستحى الإناث[١] وأصبح فرعون مفسدًا فى الأرض، فهو قد جعل المصريين شيعًا[٢]، وجعل بنى إسرائيل فى الطبقة الدنيا وقتل أبناءهم واستضعفهم فى الأرض.

وذهب فرعون إلى أكثر من ذلك فنادى فى الناس: أنا ربكم الأعلى، وما علمت لكم من إله غيرى، فاستخف قومه فأطاعوه.

وأراد فرعون الزواج فتقدم لخطبة «آسيا» بنت مزاحم كراهية وهى كانت مؤمنة وكانت من النساء اللاتى مدحهن سيدنا «محمد» ووصفهن بالكمال وهن آسيا ومريم وخديجة وفاطمة، رضى الله عنهن جميعًا.

وكانت آسيا بنت مزاحم كارهة لفرعون فقالت لأبيها لن أتزوج هذا الكافر.

فقال لها: يا بنيتى إن لم توافقى فسوف يقتلنا جميعًا، فوافقت على الزواج منه وهى كارهة اتقاء لشره.

فى تلك الأثناء حملت أم موسى به وخافت من بطش جنود فرعون أن يقتلوا ولدها بعد أن تضع، فأخفت حملها وتوارت عن العيون والأنظار، ولم يعلم بخبرها سوى أخص أقاربها، وما إن اقترب ميعاد الطلق توارت أكثر ووضعته سرًا.

ثم بعد ذلك خافت خوفًا شديدًا من جنود فرعون، لو علموا بأمرها قتلوا رضيعها، فأوحى الله لها وألهمها أن تضعه فى صندوق خشبى به فتحات ضيقة من أعلى وتضع فيه رضيعها ثم تلقيه فى اليم[٣] .

فأخذت أم موسى ترضع وليدها ثم لما انتهت من رضاعه وضعته فى صندوق خشبى وألقته فى النهر، وقالت أمه لأخته: راقبى هذا الصندق وانظرى إلى أى مكان يستقر، فراقبت أخت موسى الصندوق حتى وجدته قد وصل إلى قصر فرعون.

فما إن رآه الجنود حتى التقطوه من اليم وأوصلوه إلى فرعون، وما إن أمسك به فرعون حتى فتحه فوجده ولدًا ما زال رضيعًا، فقرر على الفور قتله، لكن زوجته آسيا بنت مزاحم قالت له: اتركه ولا تقتله، سنربيه فى القصر ويكون قرة عين لى ولك.

---

(١) يستحى النساء: يتركهم أحياء.

(٢) شيعًا: طبقات.

(٣) اليم: البحر أو النهر.

فقال فرعون: قرة عين لك أنت، أما أنا فلا، وأخذت آسيا الغلام وأرادت أن تبحث له عن مرضعة، فعرضت عليه كثير من المرضعات فأبى كل المرضعات، فجاءت أخته وكانت تخدم فى القصر فقالت لهم: هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وستجدون فيه سيدة ترضعه فوافقوا وتوجهوا إلى البيت حيث أمه المكلومة التى تنتظر رضيعها على آصر من الجمر، فأخذته وأرضعته وكان فضل الله عليها إذ أرجع لها طفلها حتى يطمئن قلبها وتقر عينها به، ولتعلم أن وعد الله حق وأن الله لن يتركه برعايته وحفظه.

كبر موسى عليه السلام واشتد عوده وخرج ليلاً يتنسم الهواء العليل والشوارع خالية من المارة وبينما هو يتمشى إذا وقع بصره على رجلين يقتتلان وكل واحد منهم يمسك فى تلابيب الآخر، واقترب موسى منهما فوجدهما على هذه الحال من التشاجر، وما أن رآه أحدهما حتى استنجد به، وكان إسرائيليا، أى أنه من المستضعفين، وكان المصرى الذى يقاتله قد بغى عليه، فلما جاء موسى وكز المصرى وكزةً جعلته يقع على الأرض ويفارق الحياة.

تعجب موسى أشد العجب من قوته هذه التى لم يقدرها، فهو لم يقصد إطلاقًا قتل هذا المصرى، وإنما أراد أن يرده عن الذى من شيعته، فأصبح موسى ﷺ فى المدينة خائفًا يترقب ما سيحدث نتيجة فعلته البارحة.

وإذا بالذى استنصره بالأمس يستصرخه اليوم، فلما جاءه موسى قال له: إنك لغوى مبين، فأراد موسى أن يدافع الذى هو عدو لهما، قال له: يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسًا بالأمس؟ إن تريد إلا أن تكون جبارًا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين.

الآن عرف موسى ﷺ أن أمره قد افتضح، فخاف أشد الخوف من المصريين، وطالما أن الخبر قد انتشر فلا بد وأن ينالوا منه ويقتلوه.

وبالفعل انتشر الخبر فى كل أرجاء المدينة واجتمع القوم ليتشاوروا فى هذا الأمر وقرروا قتل موسى، خصوصًا أن فرعون ما كان يحبه، وأثناء ذلك جاء رجل من أطراف المدينة كان يحب موسى حبًا شديدًا سمع بإتمار القوم(١) فعرف أنهم سيقتلونه، فهرول إلى موسى وأخبره بأن القوم سيقتلونه إن لم يسبقهم ويخرج من المدينة.

---

(١) إئتمار القوم: اجتماع القوم.

خاف موسى، وعلى الفور خرج من المدينة متجهًا نحو الشرق حتى دخل صحراء سيناء، وأخذ كل هذه المسافة مشيًا على قدميه حتى تقطع نعله ومشى حافيًا على بطن قدميه التى آلمته.

عبر موسى ﷺ سيناء حتى دخل إلى قرية مدين التى أهلك قومها فى يوم الظلة، الذين كذبوا النبى شعيبًا.

وما إن وصل موسى ﷺ إلى مدين وجد على آبارها أمة من الناس يسقون ووجد زحامًا شديدًا، وفى هذا الزحام لمح بنتين تدفعان غنمهما وماشيتهما عن باقى الناس.

فتعجب وقال فى نفسه: لا بد أنهما تريدان السقيا، ويجب أن أساعدهما لوجه الله فلما ذهب إليهما قال لهما: ما خطبكما؟.

قالتا: لا نسقى حتى يصدر الرعاء[1] وأبونا شيخ كبير لا يستطيع أن يخرج ويزاحم الناس ويسقى الماشية والأغنام، ولولا ذلك ما خرجنا.

فأخذ موسى ﷺ منهما ماشيتهما وسقى لهما وبعد ذلك انصرفتا.

وتولى موسى إلى الظل ودعا الله عز وجل وقال: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (القصص: ٢٤) أى: يا رب لقد جئت إلى هنا خائفًا أترقب، وجئت حافيًا جائعًا، فلم آكل طول الطريق إلا ورق الشجر حتى دخلت بطنى فى ظهرى من شدة الجوع.

وإذا هو كذلك حتى جاءت إحدى الفتاتين اللتين سقا لهما تمشى على استحياء وقالت له: إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا، وكانت قد حكت لأبيها ما حدث من ذلك الشاب القوى الأمين ذى البشرة السمراء القوى البنية، لكن تظهر عليه آثار السفر ويظهر على وجهه الإعياء الشديد.

فلما علم شعيب بذلك أرمل ابنته فى طلبه ومشى موسى ﷺ أمام الفتاة بنت النبى شعيب ﷺ وهى تمشى خلفه، وكانت تدله على الطريق للمنزل الذى يعيشون فيه عن طريق الإشارة ترمى الحصى أمامه يمينًا أو يسارًا.

وصل ﷺ حتى لقى شعيبًا فى منزله فرحب به شعيب ﷺ وشكره على عمله الشهم النبيل.

(١) يصدر الرعاء: ينتهى الرعاء من السقيا فنسقى بعدهم.

قالت إحدى الفتاتين: يا أبت استأجره، لأننا كما ترى ضعفاء فتحتاج أجيرًا قويًّا أمينًا مثل هذا الشاب.

فقال له شعيب: يا موسى إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى سنوات، وإن أتممت العمل عندى عشر سنوات فمن عندك، وهذا هو مهرها طالما أنك لا تملك من حطام الدنيا شيئًا، وأنا لا أريد أن أشق عليك، وإن عاملتنى وعملت عندى فسوف تجدنى إن شاء الله من الصالحين.

وافق موسى ﷺ على هذا العرض من شعيب ﷺ وحكى له قصته ولماذا خرج من مصر، كما أخبره النبى شعيب بقصته مع مدين.

مرت الأيام يومًا بعد يوم ونفدت السنوات سنة بعد الأخرى حتى انتهت الثمانى سنوات فأتمها موسى عشرًا.

وتاقت نفس موسى إلى موطنه الذى ولد فيه وإلى رؤية أمه وإخوته، وقد مضى على فراقهم عشر سنوات ومن المؤكد أن موضع قتل القبطى قد نُسى وقرر موسى ﷺ الرجوع إلى مصر حيث قد تغير شكله نوعًا ما ولن يتعرف عليه أحد، إلا المقربين منه.

أخذ موسى أهله وسار بهم حتى وصل إلى جبل الطور فى سيناء وكانت ليلة شديدة البرد، وموسى ينظر حوله حتى يجد ما ينيره فى هذه الليلة الحالكة الظلام، فلمع من بعيد ضوء أو نور كأنه نار فقال لأهله: امكثوا أنتم وأنا سأذهب إلى هناك لأحضر قبسًا من النار أو أجد على هذه النار هاديًا يدلنى على الطريق.

سار موسى ﷺ نحو ذلك الضوء الشبيه بالنار وما إن وصل إليه حتى اندهش مما رأى، لقد رأى شجرة يشع من جوفها النور كلها أشواك، فتعجب لذلك وهنا كلمه الله تعالى، قال له الله: يا موسى إنى أنا الله رب العالمين، واخلع نعليك يا موسى إنك بواد مقدس اسمه «طوى».

وأنا يا موسى قد اخترتك لكى تكون نبيًّا ورسولاً من أولى العزم.

ثم سأله الله عز وجل: ما هذه التى تمسكها بيمينك يا موسى؟.

فقال موسى: هذه عصاى، أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى، ولى فيها مآرب أخرى.

فقال له الله: ألقِ هذه العصا يا موسى، فألقاها موسى فتحولت بقدرة الله إلى حية ضخمة كبيرة، فخاف موسى فقال له الله: لا تخف يا موسى وخذ عصاك سنرجعها إلى سيرتها الأولى وحالتها التى كانت عليها.

فأخذ موسى عصاه بعدما رجعت إلى طبيعتها فاطمأن قلبه، وقال له الله: أدخل يدك فى جيبك حتى تصل إلى إبطك ثم أخرجها.

ففعل ذلك موسى فإذا هى بيضاء دونما مرض.

وأخذ النور يشع منها، فعلم موسى أنها معجزة من الله.

قال الله لموسى: اذهب بهاتين الآيتين إلى فرعون، ادعه إلى الإيمان بالله لأنه طغى وتجبر، فقال موسى: يا رب إنى قد قتلت منهم نفسًا فأخاف أن يقتلون، وإن كان لا محالة فأرسل معى أخى يا رب وزيرًا لى اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى، كى نسبحك كثيرًا ونذكرك كثيرًا إنك كنت بنا بصيرًا.

استجاب الله لموسى وجعل هارون من الأنبياء وقال له: سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانًا فلا يصلون إليكما، ولن يستطيعوا أن ينالوا منكما ولا من الذين يؤمنون معكما.

ذهب موسى ﷺ إلى أمه وأخوته وسلم عليه وعرفهم بقدومه ثم انطلق متجهًا نحو قصر فرعون، فلما رآه قال له ماذا تريد؟.

قال موسى : أريد منك أن تعبد الله وأن تترك ضلالك وغيك يا فرعون.

فقال فرعون ــ وكان قد تذكره: أنت الذى ربيناك ورعيناك ومكثت معنا سنينا من عمرك تأتى وتقول ذلك لى، ثم إنك فعلت فعلتك وهى قتلك للقبطى وهربت.

يا موسى وما رب العالمين الذى تريدنى أن أعبده؟.

رب السموات والأرض وربكم ورب آبائكم الأولين.

وما دليلك على صدق كلامك؟.

فأراه موسى المعجزتين: العصا واليد البيضاء.

يا موسى إنى لأظنك مسحورًا.

وإنى لأظنك يا فرعون مثبورًا.

دعا موسى فرعون إلى الإيمان بالله لكن فرعون رد عليه بأنك ساحر يا موسى وسأجمع لك السحرة كى يهزموك بسحرهم ويتفوقوا عليك فى هذا المجال.

فقال موسى: اجعله يوم الزينة حتى يجتمع الناس.

فنادى المنادى أن موسى سيواجه السحرة فعلى جميع الناس أن تحضر لتشهد على كذبه.

وجاء يوم الزينة وجيء بالأربعين ساحرًا فكلمهم موسى ودعاهم إلى الإيمان به وحذرهم من الافتراء على الله كذبًا، فتنازع السحرة الأمر بينهم وقالوا: سننظر ما تسفر عنه النتائج، وقالوا لفرعون: هل لنا من أجر إن تغلبنا على موسى؟.

فقال لهم فرعون: نعم وسأجعلكم من المقربين.

وبدأ التحدى... فريق يضم أربعين ساحرًا والفريق الآخر يمثله موسى برعاية من الله.

فقال لهم موسى: ألقوا ما أنتم ملقون، فألقوا عصيهم وحبالهم وقالوا: بعزة فرعون سنكون نحن الغالبين.

فتحولت حبالهم وعصيهم بفعل السحر الذى سحر بتأثيرهم إلى ثعابين وحيات.

فقال موسى: ما جئتم به من السحر فإن الله سيبطله، ولا يفلح كيد ساحر حيث أتى، فألقى موسى عصاه فتحولت بقدرة الله إلى أفعى كبيرة ضخمة بلغت كل ما قد ألقوه فتعجب الجميع.

وعلم السحرة أن هذا الذى فعله موسى ليس بسحر، بل هو من عند الله.

خر السحرة سجدًا لله قائلين: آمنا برب موسى وهارون.

فغضب فرعون غضبًا شديدًا وقال لهم: آمنتم به قبل أن آذن لكم، إنه لكبيركم الذى علمكم السحر وإن لم تعودوا لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابًا وأبقى.

فقالوا له: يا فرعون افعل ما تشاء فلن نترك الإيمان بالله الذى خلقك وخلقنا.

إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا، ويغفر لنا ما أكرهتنا عليه من السحر، والله خير وأبقى، وإنا إليه منقلبون وراجعون.

ودعا المؤمنون دعاء جميلاً قائلين: ربنا أفرغ علينا صبرًا وتوفنا مسلمين.

انفض الجمع الغفير بعد أن شهدوا هزيمة فرعون وإيمان السحرة وسجودهم لله.

وجاء بعد ذلك قوم يتبعون فرعون يحرضونه على موسى ومن معه.

وقالوا له: أتترك موسى والذين معه يفسدون فى الأرض.

فقال فرعون: سوف نقتل أبناءهم ونستحى نساءهم وسوف نقهرهم ونذلهم.

فقال موسى لأتباعه: استعينوا بالله واصبروا على إيذاء فرعون والله لن يترك عباده المؤمنين.

فقالوا له: لقد أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا.

فقال لهم موسى ﷺ: عسى ربكم أن يهلك فرعون وجنوده ويجعلكم خلفاء فى الأرض ويمكن لكم.

وقرر فرعون مواصلة إيذاء بنى إسرائيل، لكن الله كان له بالمرصاد فأرسل عليه وعلى المصريين تسع آيات كلها بلاء.

فجعل الله النيل ينقص ماؤه وقلت الثمرات ونقصت فكان الشجر لا يثمر، ثم أرسل الله عليهم الجراد والقمل والضفادع، فكان المصرى عندما يأوى إلى فراشه يجد الملابس والفرش قد امتلأت جميعًا بالقمل والجراد وقفزت عليهم الضفادع.

الآن استعانوا بدعاء موسى لربه وقالوا له فى كل بلاء أن يدعو ربه أن يفرج عنهم ما هم فيه.

وكانت بيوت الإسرائيلين لا يقربها شيء من ذلك كله بل هذه الحشرات مقصورة على فرعون وقومه.

فكان موسى ﷺ يدعو ربه فيزيح الله عنهم هذا الغم فكانوا ينكثون عهدهم مع موسى فى كل مرة حيث كانوا يعاهدونه على أن يدعو لهم مقابل خروج بنى إسرائيل من مصر حتى يستريحوا من هذا الذل.

إلى أن جاء الدم الذى أرسله الله عليهم فكانوا إذا أرادوا الشرب تحول الماء إلى دم، وإذا أراد الإسرائيلى أن يشرب فيكون الماء نظيفًا لا شيء فيه، وإذا طلب المصرى من الإسرائيلى ماء كان يعطيه ولكن بمجرد أن يأخذه المصرى ويقربه إلى فيه يتحول إلى دم.

فقال فرعون لموسى: ادع ربك وأعاهدك على الخروج، فأمر الله موسى أن يخرج هو والذين آمنوا معه ليلاً وبعدما دعا موسى ربه أن يرفع عنهم الدم خرج هو وبنو إسرائيل فى الليل وكان عددهم ستمائه ألف فرد.

ولكن فرعون وقومه نكثوا عهدهم مع موسى لم يؤمنوا مع كل ما حدث من معجزات وقرروا ملاحقة موسى ومن معه، وخرجوا مع طلوع الشمس مسرعين نحو

الشرق حيث سار موسى وقومه ولحق فرعون بهم ولم يفصل بينهم سوى مسافة قصيرة.

ماذا يفعل موسى فى هذه اللحظة العصيبة؟ فالعدو أمامهم والبحر وراءهم، فأوحى الله إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر فأطاع موسى ربه وضرب البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم.

فبعد أن فقد أصحاب موسى الأمل من النجاة قالوا: إنا لمدركون.

قال لهم موسى: كلا، إن معى ربى سيهدين، فعبر موسى وقومه على اليابسة التى سخرها الله لهم، فى وسط البحر، ولم يجرؤ فرعون على العبور لكن فرسه هرول فدخل به وراء موسى، وما إن عبر موسى وقومه إلى الشاطىء الآخر وعبر آخر فرد مع موسى.

هنا أمر الله الملائكة بأن تطبق على فرعون وجنوده ماء البحر، وكان سيدنا جبريل عليه السلام يحثو الماء فى فم فرعون حتى لا يتوب، ومع ذلك قال فرعون وهو يغرق: آمنت بالذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين.

فقال له الله: الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين، فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية.

وجثته موجودة حتى الآن فى المتحف المصرى، وهو نائم فى صندوق زجاجى حتى يراه الناس ويعتبروا ويتعظوا.

ولم يسمع فرعون نصح الناصحين، فكم نكث العهود مع موسى وأراد قتله لولا الرجل المؤمن الذى كان من قومه لكنه يكتم إيمانه، وقال لهم: أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم، وإن يك كاذبًا فعليه كذبه، وإن كان موسى صادقًا يصبكم بعض الذى يعدكم؟.

فما كان من فرعون إلا أن قال: ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد.

وقال لهم: ما علمت لكم من إله غيرى، وقال كذلك: يا هامان ابْنِ لى صرحًا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبًا.

هذا كل ما حدث من فرعون من أقوال كلها كفر وأفعال شيطانية انتهت بهلاكه ودخوله جهنم وبئس المصير، بعد أن أصبح عبرة لمن أراد أن يعتبر.

بعدما أهلك الله تعالى فرعون كان قد أهلك واحدًا آخر كان من قوم موسى فبغى عليهم وتكبر، ذلك هو «قارون» الذى أعطاه الله المال والذهب حتى كان خدمه يحملون مفتاح الحجرة الواحدة بصعوبة بالغة، ولقد أعطاه الله الكنوز وقال له قومه: لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين، واستخدم أموالك التى أعطاكها الله فى الخير وابتغاء الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين.

فكان رده: هذا المال أعطانيه الله لأنه يحبنى.

وكان قارون منافقًا وانضم لحزب فرعون وهامان، ولما كان قارون يظهر على الناس فى زينته كان الناس يتمنون ما أوتى لقارون ويقولون: يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم.

ولكن المؤمنين قالوا لهم: ويلكم، ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحًا.

ولا يحصل على الخير غير الصابرين المؤمنين.

فكان جزاء قارون الذى لم يستمع لصوت الحق مثله مثل فرعون وهامان وجنودهما أن خسف الله به وبداره الأرض.

فبينما هو فى قصره يحثو الذهب حثًا إذ الأرض تتزلزل وتتشق فتبتلع قصره بما فيه من مال وذهب، وهلك قارون كما هلك صاحبه فرعون، وذلك جزاء الظالمين.

وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون: ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر، لولا أن مَنَّ الله علينا لخسف بنا، ويكأنه لا يفلح الكافرون، والله تعالى جعل الدار الآخرة للمصلحين وللمتقين.

لجا الله موسى وبنى إسرائيل من فرعون وأغرق عدوهم الذى أذاقهم سوء العذاب وقتلهم وأذلهم.

سار موسى وقومه فى سيناء حتى قابلوا مجموعة من الناس يعكفون على أصنام لهم فقالوا: يا موسى، اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة.

فوبخهم موسى على ذلك بعد أن فضلهم الله على العالمين.

وقال لهم: إنكم قوم تجهلون، وإن هؤلاء القوم الذين يعبدون الأصنام يعيشون فى الباطل والضلال.

فعلى الرغم من المعجزات التى شاهدوها بأعينهم لم يؤمنوا وتمردوا على موسى عليه السلام.

لما دخل موسى عليه السلام وقومه سيناء تركهم موسى وسبقهم إلى جبل الطور لكى يكلم الله تعالى هناك، وترك معهم أخاه هارون ولما ذهب موسى إلى جبل الطور.

قال له عز وجل: ما أعجلك عن قومك يا موسى؟ فقال له موسى عليه السلام: هم أولاء على أثرى وعجلت إليك يا رب لكى ترضى عنى.

واعد الله موسى عليه السلام ثلاثين ليلة يعلمه التوراة فى كل ليلة، فكان موسى عليه السلام يتلقى التوراة فى ألواح حجرية.

وكان موسى عليه السلام صائمًا هذه الأيام فلما شم رائحة غريبة من فمه أفطر بتمرة.

فقال له الله: لماذا أفطرت يا موسى؟ فقال موسى: إن رائحة فمى تغيرت.

فقال الله عز وجل: ألم تعلم يا موسى أن رائحة فم الصائم عندى أطيب من المسك، فزاده الله عشر ليال زيادة عن الثلاثين حتى اكتملت أربعين ليلة، وتأخر موسى عن قومه.

فى تلك الأثناء أخبر الله تعالى موسى أن قومه قد فتنوا بعبادة العجل الذى صنعه لهم السامرى فغضب موسى غضبًا شديدًا.

وأراد أن يرى الله تعالى فقال له الله: لن ترانى، ولكن انظرإلى هذا الجبل الذى أمامك وسوف أتجلى له فإن استقر الجبل وتحمل نورى فسوف ترانى وإن لم يستقر فلن ترانى فلما تجلى الله للجبل جعله دكا، وخر الجبل، فخر موسى صعقًا وأغمى عليه فلما أفاق من الإغماءة قال: سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين.

وأمر الله موسى أن يأخذ التوراة وقد كتب فيها من كل شيء موعظة، وأن يأخذها بجدية ويبلغها قومه، وأمر الله موسى أن يشكر الله على ذلك لأن الله قد اصطفاه برسالاته وبكلامه.

رجع موسى عليه السلام بعدما تلقى التوراة وبعدما تكلم مع ربه فوجد عجبًا من قومه، وجدهم يعبدون عجلاً صنع لهم من الذهب، لأن بنى إسرائيل خرجوا من مصر ومعهم ذهب المصريين الذى استودعوه معهم.

فجاء السامرى وجمع هذا الذهب ــ بناء على طلبهم ــ وصنع العجل الذى له خوار.

فلما جاء موسى ورآهم ألقى الألواح من الغضب، وأخذ يجذب أخاه هارون من شعره ولحيته.

فقال له: ما منعك إذا رأيتهم ضلوا؟ ألا تتبعنى أفعصيت أمرى؟!.

فقال له أخوه هارون: يا بن أمى لا تجذبنى من شعرى ولحيتى، فإنى قد دعوتهم ووقفت لهم بالمرصاد، لكنهم أرادوا أن يقتلونى واستضعفونى، لأنى هنا بمفردى، وماذا أفعل مع ستمائة ألف وأنا وحيد بينهم، ثم إننى يا أخى خشيت أن آخذ منهم الذين آمنوا وأترك الذين عبدوا العجل فيتفرقوا، وتأتى حينها وتقول لى: فرقت بينى وبين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى.

فقال موسى: رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين.

وقال موسى عليه السلام للذى صنع العجل: ماذا فعلت يا سامرى؟!.

فقال السامرى: لقد رأيت الملك وهو فوق حصانه كلما داس على الأرض نبت الزرع من تحت قدميه فأخذت قبضة من هذا التراب، وهو أثر حصان الملك وألقيتها على العجل الذى صنعته فأخرج هذا الخوار وكذلك سولت لى نفسى.

فقال له موسى عليه السلام: اذهب يا سامرى فإن لك فى هذه الحياة أن تقول لا مساس، أى لا أحدًا يمسك حتى لا تتألم، وإن مسك أحد فإنك تتألم من ذلك.

وأخذ موسى عليه السلام العجل المصنوع من الذهب الذى يعتبرونه ربهم وأحرقه حتى أصبح رمادًا ثم ألقى هذا الرماد فى البحر.

فلما رأى قومه ذلك عرفوا أنه ليس بإله واعتذروا لموسى واستغفروا الله وقالوا: هل لنا من توبة؟.

لكن موسى عليه السلام قال لهم لكى يقبل الله توبتكم لا بد أن تقتلوا أنفسكم، ذالكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم فقتل عدد منهم أنفسهم لأنهم أصحاب توبة صادقة وبقى الآخرون على كفرهم لكنهم رضوا بأى حياة لأنهم أحرص الناس على حياة أى حياة حتى ولو كانت ذلاً.

بعد ذلك اختار موسى سبعين رجلاً وهم أصلح القوم وسار بهم جانب الطور فلما وصلوا قالوا: يا موسى نريد أن نسمعك وأنت تكلم ربك فكلم الله موسى وجعلهم يسمعون كلام الله.

وبعد ذلك قالوا لموسى: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة فأخذهم الله بالصاعقة حتى أماتهم جميعًا.

فعلى الرغم من أنهم أصلح بنى إسرائيل وأنهم رأوا المعجزات إلا أنهم ما زالوا يجهلون.

لما رآهم موسى عليه السلام قد صعقوا دعا ربه وأخذ يجتهد فى الدعاء أن يرجع بهم حتى لا تشمت به بنو إسرائيل.

فأحيا الله السبعين رجلاً من جديد وأخذ بعضهم ينظر إلى بعض وهم يحيون بقدرة الله، ومع كل ذلك جهلوا وكانوا مترددين.

جاء موسى إلى بنى إسرائيل وكلما قال لهم: اسمعوا وأطيعوا يقولون له: سمعنا وعصينا، فأخذهم موسى وسار بهم ناحية فلسطين يريد فتح «بيت المقدس» وكانت مدينة «القدس» حينذاك تسمى «إيلياء» وكان يسكنها قوم جبارون أقوياء يتكلمون فى كل المدن التابعة للقدس ولهم حصون منيعة وبأس شديد، فلما جاء موسى عليه السلام بقومه وأمرهم بقتال هؤلاء القوم الجبارين حتى يتسنى لهم دخول المدينة المقدسة التى كتب الله لهم دخولها فرفضوا، وقالوا: سمعنا وعصينا، وقالوا: يا موسى إن فيها قومًا جبارين، إذا خرجوا منها فإنا فى هذه الحالة سندخل دون قتال، فنحن كنا عبيدًا عند المصريين أكثر من أربعمائة سنة وليس لنا دراية بفنون القتال والنزال.

وجد موسى نفسه وأخاه فقط هما اللذان يؤمنان بالله ويصدقان وعده بالفتح وقالا لهم: ادخلوا عليهم الباب ــ مجرد الدخول ــ فإذا دخلتموه فسوف تغلبون بقدرة الله، لكن بنى إسرائيل رفضوا ذلك.

فدعا موسى أن يفرق الله بينهما وبين قومهما فعاقبهم الله بالتيه فى الصحراء أربعين سنة فكانوا يمشون ولا يصلون إلى شىء ولا يجدون سوى صحراء، استمروا على ذلك أربعين سنة، عقابًا لهم على جحودهم وتكذيبهم وعدم طاعة نبيهم.

وأرادوا الشرب فذهبوا إلى موسى لكى يستسقوه.

فدعا موسى ربه السقيا فأمره الله أن يضرب بعصاه الحجر، فضرب موسى الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا لكل سبط منهم عينٌ.

فكان الماء يتفجر من الحجر بقدرة الله فأخذوا يشربون.

وأرادوا الطعام فأرسل الله لهم طيور السلوى، وهو طائر كالسمان فيسقط عليهم فيأخذونه ويشوونه ويأكلونه وكان الله يرسل لهم المن وهو سائل كالعسل، ومع ذلك لم يشكروا وطلبوا من موسى ﷺ أن يدعو الله أن يأتى لهم بالعدس والبصل والفول والقثاء.

فتعجب موسى منهم وقال لهم مستنكرًا: أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم؟! وضرب الله عليهم الذلة والمسكنة.

وحدث أن قتل أحدهم فقالوا: من قتله؟ فدرأ كل واحد منهم التهمة عن نفسه، فذهبوا لموسى لكى يدعو الله حتى يكشف القاتل من بينهم، فلما دعا موسى ﷺ ربه عز وجل قال لهم: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة.

هل تسخر منا يا موسى؟!.

أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين.

صف لنا هذه البقرة.

يقول الله إنها بقرة ليست كبيرة السن ولا صغيرة، بل هى وسط، فافعلوا ما أمركم به الله.

ما لونها؟.

يقول الله إنها بقرة صفراء شديدة الاصفرار وإذا رآها أحد فإنها تسره.

فلم ينفذوا بل أراد القوم التشديد على أنفسهم فسألوا عن مكان البقرة وعن مواصفاتها، فأجابهم سيدنا موسى ناقلا عن الله تعالى إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تعمل فى ساقية، وهى صفراء خالصة ليس بها أى علامة.

فقالوا له: الآن جئت بالحق، فبحثوا عن هذه البقرة حتى وجدوها عند يتيم فقير فسألوه أن يبيعها لهم فقال لهم: أبيعها لكم بوزنها ذهبًا، فتضايقوا ولكنهم مضطرون فوافقوا ودفعوا الذهب.

وذلك لأنهم تشددوا فشدد الله عليهم، وذبحوها، فأمرهم الله أن يأخذوا أى جزء منها ويضربوا به القتيل ففعلوا فقام القتيل بعد أن أحياه الله مرة أخرى، فقال: فلان قتلنى، ثم مات مرة أخرى.

جاء رجل سأل موسى من أعلم أهل الأرض يا موسى؟ فقال موسى: أنا أعلم أهل الأرض، فأراد الله أن يعلمه درسًا أن فوق كل ذى علم عليم فأخبره أن هناك عبدًا صالحًا عنده علم أكثر منك، فقال موسى: يا رب من هو هذا العبد الصالح؟!.

فقال له الله: إذا أردت أن تعرفه وتتعلم منه فهو عند مجمع البحرين وعلامة إلتقائك به أن يأخذ الحوت الذى ستحمله معك طريقه إلى البحر، فالعبد الصالح هناك فى هذا المكان.

فسافر موسى ﷺ ناحيه التقاء البحرين وأخذ معه فتاه (يوشع) الذى صار نبيا بعد ذلك، ومشيا، ومع يوشع زنبيل يضع فيه الحوت المشوى وسارا معًا، وبينما هما كذلك حتى تعب موسى فنام وترك يوشع، وأثناء نوم موسى رأى يوشع الحوت يخرج من الزنبيل ويأخذ طريقه حتى نزل البحر.

فتعجب يوشع أشد العجب، واستيقظ موسى ولكن فتاه نسى أن يخبره بأمر الحوت، وبعد مدة جاع موسى وقال لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا.

فقال يوشع: نسيت أن أخبرك يا نبى الله أن الحوت قد أخذ سبيله إلى البحر عجبًا، فانتبه موسى وقال هذا ما كنا نبغى فرجع موسى وفتاه إلى حيث أتيا وتابعا آثار أقدامهما حتى وصلا إلى فطرق البحرين.

وهنا وجد موسى العبد الصالح «الخضر» ﷺ فعرض عليه موسى أن يتبعه على أن يعلمه مما علمه الله، فقال له «الخضر»: لكنك لن تستطيع أن تصبر على أفعالى، فإذا اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أخبرك به، فقال له موسى: ستجدنى إن شاء الله صابرًا ولا أعصى لك أمرًا.

فانطلقا حتى ركبا السفينة فلما جرت بهم أقدم العبد الصالح على خرقها وتخريبها، فغضب موسى وقال له: أخرقتها حتى يدخل الماء إليها ويغرق من فيها وأصحابها قد وافقوا على أن نركب معهم فهل هذا جزاؤهم؟!.

فقال له الخضر: ألم أقل: إنك لن تستطيع الصبر معى فقال له موسى: لا تؤاخذنى فإنى قد نسيت.

فنزل موسى والعبد الصالح حتى مرًّا على أطفال يلعبون، فأمسك العبد الصالح طفلا منهم وقتله، فغضب موسى وقال له: لماذا قتلت هذا الطفل؟! إنه نفس زكية، لقد أتيت بشىء فظيع منكر.

فذكره الخضر بوعده إياه وهوعدم السؤال عن شيء فاعتذر موسى ثانية وقال للعبد الصالح: إن سألتك عن شيء بعد ذلك فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرًا.

فانطلق موسى والخضر حتى وصلا إلى قرية طلبا من أهلها الطعام، لكن أهل القرية رفضوا أن يضيفوهما، وهما بمثابة عابرى سبيل ومن الواجب إعطاؤهم الطعام.

فوجد العبد الصالح جدارًا على وشك الانهيار فطلب من موسى مساعدته فى هدمه وبنائه مرة أخرى، فأحضر موسى مواد بناء وأخذ يساعد الخضر طوال الليل فتعب موسى وقال للخضر: لو أخذت على ذلك أجرًا، إنهم رفضوا إطعامنا فكيف نبنى لهم الجدار؟.

هنا قال الخضر: يا موسى هذا فراق بينى وبينك، وقبل أن نفترق سأفسر لك ما قد غمض عليك ولم تعلمه، بل أعلمه أنا، لأن الله قد علمنيه.

أما السفينة التى خربتها فهى كانت لفقراء ومساكين يعملون بالصيد وهذه السفينة تعينهم على ذلك، وكان هناك ملك فى البحر يأخذ كل سفينة صالحة غصبًا وإذا رأى فيها عيبًا لا يأخذها فأردت أن أعيبها حتى لا يأخذوها من هؤلاء المساكين.

وأما الغلام فهو إن كبر وشب فسوف يحول والديه من الإيمان إلى الكفر، وسيفسد فى الأرض ويبطش بالناس فأراد الله أن يرزق والديه غلامًا غيره صالحًا طيبًا يحافظ على إيمانهم بالله.

وأما الجدار فهو كان ملكًا لاثنين يتيمين فقيرين، كان أبوهما صالحًا، فأراد الله عز وجل أن يحصلا على كنزهما الموجود أسفل الجدار الذى كان على وشك الانهيار فهدمته وقمت ببنائه من جديد حتى إذا ما اشتد عودهما جاءا واستخرجا كنزهما.

عرف موسى من خلال كل هذه المشاهد أن الله أراد أن يعلمه أشياء لم يعرفها، وأن هناك من هو أعلم منه، وفوق كل ذى علم عليم، وقال له الخضر وقد رأى عصفورًا يشرب من البحر: يا موسى ما علمى وعلمك إلا كقدر ما أخذ هذا العصفور من البحر.

رجع موسى ﷺ إلى قومه بنى إسرائيل وهم فى التيه وفى خلال هذه السنوات مات هارون ﷺ ودفن فى الصحراء.

وبعده بعامين جاء ملك الموت لقبض روح موسى.

والأنبياء مخيرون فى وقت قبض الروح، فلما جاء الملك لموسى لقبض روحه صكه موسى فرجع ملك الموت إلى الله وقال له: لقد أرسلتنى إلى عبد من عبادك لا يريد الموت.

فأرسل إليه أن يضع كفة يده على شعر ثور وبعدد الشعر يعيش موسى، حيث كل شعرة تمثل سنة يعيشها.

فقال موسى: وبعدما أعيش هذه السنوات يا ملك الموت ماذا يحدث؟.

فقال له: تموت.

فقال له موسى: إذا كان كذلك فالآن اقبض روحى يا ملك الموت.

فقبض روحه ومات موسى ﷺ بعد حياة حافلة بالقصص وبالدعوة وبالجهاد والتنقل والترحال والسفر، وهو بحق جعله الله من أولى العزم من الرسل ودُفن ﷺ بالقرب من بيت المقدس، حيث وصف مكانه سيدنا محمد ﷺ وقابله فى رحلة الإسراء والمعراج.

قصة يوشع بن نون عليه السلام

لما مات هارون ﷺ وتبعه موسى بعد سنتين تولى أمر بنى إسرائيل فتى موسى الذى كان ملازمًا له هو «يوشع بن نون».

وكانت قد انتهت الفترة التى حددها الله لكى يعاقب بها بنى إسرائيل فى التيه بعدما رفضوا القتال مع موسى وهارون، حيث قالوا لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون وجاء يوشع وطلب منهم ما طلبه موسى من قبل وهو فتح «إيلياء» وبعدما أحس بنو إسرائيل بشدة عقاب الله إن هم عصوا مرة أخرى فاتجهوا نحو بيت المقدس الذى بناه يعقوب ﷺ، ولما جاءوا على أبواب المدينة حاصروها وكان بها قوم جبارون أقوياء فاشتبك الطرفان ودارت رحى الحرب وانتصر يوشع بجيشه على القوم الجبارين وهمَّ بدخول بيت المقدس.

وأمر يوشع بنى إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدسة مطأطئين رءوسهم وأن يقولوا: حطة ــ أى: يا رب حط عنا خطايانا. فدخل بنو إسرائيل لكنهم لم يطيعوا أمر النبى يوشع، فدخلوا وهم يقولون: حنطة، فقد حرفوا اللفظ وبدلوا الكلمة المرادة منهم.

فأرسل الله عليهم رجزًا وعذابًا من السماء فقيل: إنه مات منهم عشرون ألفًا فى يوم، فلما رأوا الطاعون قد تفشى بينهم تابوا ورجعوا.

واستقر بنو إسرائيل فى القدس، أصبحوا يمتلكون البلاد والعباد، ومرت السنون ومات يوشع بن نون بعد أن عمر سبع وعشرين ومائة سنة.

قصة إلياس عليه السلام

كان إلياس ﷺ من أنبياء الله، وهو مرسل من الله إلى قومه بنى إسرائيل، الذين كثر عددهم وانتشروا فى الأرض وسكنوا فى لبنان عند مدينة اسمها الآن «بعلبك» وكانوا يعبدون بعلاً من دون الله فأرسل الله إليهم «إلياس» ﷺ وقال لهم: إن الله ربى وربكم ورب أبائكم الأولين لكنهم كذبوه، إلا قليل منهم.

وقد كان إلياس ﷺ يستنكر على قومه عبادة البعل وقال لهم: أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين الله ربكم ورب آبائكم الأولين فاعتزلهم إلياس أو «إلياسين» واختفى بعد ذلك.

وجاء النبى «اليسع» ﷺ ولقد فضله الله مع النبيين على العالمين وهو من الأخيار ودعا اليسع بنى إسرائيل ولكن بنى إسرائيل قد غلبهم الجبابرة وشردوهم وقد كان نظام بنى إسرائيل يعتمد على الملك والنبوة فالملك يدبر شئونهم والنبى يدعوهم.

لكنهم كانوا يقتلون الأنبياء، بل يقتلون ثلاثة أنبياء فى اليوم الواحد، وكلما قُتل نبى ظهر نبى إلى أن جاء النبى «شمويل» وهو من أحفاد يعقوب ﷺ من أبناء بنيامين ﷺ ولما جاء شمويل طلب منه بنو إسرائيل أن يختار لهم ملكًا يقاتلون تحت رايته فاختار شمويل ﷺ شخصًا فقيرًا اسمه «طالوت».

قصة شمويل عليه السلام

واسمه: إسماعيل، وهو من أحفاد سيدنا يعقوب، أرسله الإله إلى بنى إسرائيل بعدما تفرقوا وغلبهم العماليق وأخذوا منهم التابوت الذى يحمل أشياء تخص موسى وهارون عليهما السلام.

فقد كان بنو إسرائيل يحملونه معهم فى كل معركة، وفى إحدى المعارك التى هزموا فيها فقدوه وجاء شمويل ﷺ لهم فقالوا له: ابعث لنا ملكًا نقاتل فى سبيل الله، فقال لهم النبى شمويل: هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا؟ فقالوا: وما لنا ألا نقاتل وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا، فلما كتب الله عليهم ما طلبوا أعرضوا ورجعوا فى تعهداتهم إلا عداد قليل منهم ثبت على موقفه.

فقال شمويل ﷺ لقد جعل الله لكم طالوت ملكًا وكان طالوت رجلاً فقيرًا يعمل فى الدباغة فاعترض بنو إسرائيل على تولية طالوت عليهم ملكًا وقالوا: أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه، وهو فقير ولم يؤت سعة من المال.

فقال النبى شمويل: إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطه فى العلم والجسم، والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم.

وآية ملكه يا قومى أن يأتيكم التابوت الذى ضاع منكم، فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون.

فنظر القوم فإذا بالتابوت نازل عليهم من السماء.

واجتمع القوم وساروا فى الطريق إلى بيت المقدس.

قال طالوت لجنوده: إن الله سوف يمتحنكم ويجعلكم تمرون على نهر عذب، وأنتم — كما ترون — عطشى، فمن شرب من هذا النهر فليس منى يرجع، ومن لم يشرب منه فإنه مؤمن يستمر معى، ولا يرجع إلا من أراد أن يغترف غرفة واحدة حتى لا يموت من العطش فشربوا جميعًا إلا قليلاً منهم ثبت ولم يشرب.

وكان عدد هؤلاء الذين صبروا ثلاث عشرة وثلاثمائة وهم بعدد المؤمنين فى غزوة «بدر» الكبرى.

ورجع الذين عصوا وبقى الجنود القلائل مع طالوت فقالوا لا طاقة لنا بمحاربة جالوت وجنوده اليوم.

وقال الذين يظنون أنهم راجعون إلى الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين.

ولما تواجه المؤمنون وطالوت مع جالوت وجنوده دعوا الله تعالى وقالوا: ربنا أفرغ علينا صبرًا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.

ودارت رحى المعركة واشتد وطيسها فكانت بدايتها بأن جاء جالوت قائد العماليق، وكان ضخم الجثة عظيم البنيان قوى البأس فأراد المنازلة قال: من يخرج إلىَّ يبارزنى؟ فلم يجرؤأحد على تحديه.

فى تلك الأثناء كان هناك شاب مؤمن قد قلق على أخيه الذى ذهب يقاتل مع طالوت فقرر الذهاب إليهم يقاتل معهم.

فما إن وصل إلى الجيش حتى رأى جالوت وهو يقول: من يبارز أو يقاتل فلم يخرج أحد، فقال طالوت من يخرج لقتاله وسأزوجه ابنتى، فخرج «داود» ذلك الناشئ الصغير فقال: أنا له أيها القائد، فرآه أخوه فهرول إليه خائفًا عليه وهو يقول له: يا داود إنه جالوت الشديد وأنت ما زلت صغيرًا، وأخذ أخوه يثنيه عن ملاقاة جالوت فصمم داود على قتاله، وخرج له متحديًا، فقال له جالوت ساخرًا: اذهب يا غلام فأنت صغير ولا أريد قتلك.

فقال داود: وأنا أريد قتلك، وكان مع داود نوع من أنواع النبال التى تحمل ثلاثة أحجار فضربه بها فجاءت جميعًا فى مفرق ناصيته فقتلته.

والتحم الجيشان وقتل المؤمنون منهم مقتلة عظيمة وهزمهم بإذن الله وهم يومئذ قلة.

وتزوج داود عليه السلام من ابنة طالوت، ذلك القائد القوى صاحب الحنكة العسكرية والإيمان بالله الواحد، واستعاد بنو إسرائيل الأرض المباركة بعدما أخذها منهم العماليق وذلك لم يتأت من فراغ بل بالإيمان والعزيمة والتوفيق من الله.

ولما تزوج داود من ابنة قائدة آتاه الله الملك والحكمة وعلمه أشياء كثيرة وكان فضل الله عليه عظيمًا.

قصة داود عليه السلام

صار داود عليه السلام ملكًا على بنى إسرائيل بعد أن قتل جالوت، زعيم العماليق، وآتاه الله النبوة، وكان داود أزرق العينين قصير القامة، وقد أعطاه الله صوتًا عذبًا جميلاً يطرب الآذان، حتى الجبال كانت تهتز لسماع صوته وكأنها ترقص من جماله وحلاوة أدائه.

وكانت الطيور تقف فى الجو لتستمع لصوته، ولقد علمه الله صنعة لم يتعلمها أحد قبله، فقد كان يصنع الدروع التى تقى المقاتل من الضربات وتحمى جسده فى ساحة القتال وكانت تتميز بأنها حلقات خفيفة لأن الله تعالى قد ألان له الحديد يمسكه بيديه ويشكله كما يريد.

كان أحب الصلاة إلى الله هى صلاة داود، وكذلك أحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يقوم ثلث الليل وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا.

وكان كتاب داود عليه السلام الذى يقرأه ويترنم بآياته اسمه «الزبور» أنزله الله عليه، وكان نبى الله داود يأكل من عمل يده، فقد كان يصنع الدروع الواقية التى تتميز بخفتها ويبيعها ويعيش بثمنها، ولقد رزقه الله الحكمة وفصل الخطاب، ففى ليلة من الليالى تسور شخصان محراب داود فدخلوا عليه وهو يصلى، فلما رآهم فزع منهما فقال لهما: من أنتما؟ فقالا له: لا تخف يا نبى الله فنحن خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا واعدل، فقال أحدهم: هذا أخى له تسع وتسعون نعجة وأنا لى نعجة واحدة، فقال لى: هات هذه النعجة أكفلها لك وأخذ يلح علىَّ حتى أعطيتها له، فقال داود لقد ظلمك بضم نعجتك إلى نعاجه حتى صرتما شريكين، وكثير من الشركاء يظلم بعضهم بعضًا إلا المؤمنين الذين يعرفون الحقوق ولا يأكلونها سحتًا وزورًا وباطلاً، وهم قليل فى هذه الدنيا.

عندئذ ظن داود أن هذين ملكين أرسلهما الله لكى يُمتحن فى الحكم بين الناس.

فاستغفر داود ربه وخر راكعًا وأناب إليه، فغفر الله له وجعله من المقربين.

وقال له الله: يا داود لقد جعلتك خليفة فى الأرض فاحكم بالعدل بين الناس ولا تحكم بهوى النفس حتى لا يضلك الهوى عن سبيل الله، ولأن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بسبب نسيانهم يوم الحساب.

ولقد أمر الله آل داود أن يشكروا الله على ما أتاهم من نعم وفضائل.

قصة سليمان عليه السلام

مات داود ﷺ وورثه ابنه سليمان فى العلم والحكمة والنبوة، لأن الأنبياء لا يورثون دينارًا وردهما بل يورثون العلم.

ظهرت موهبة وحكمة سليمان ﷺ منذ صغره، فقد كان يجلس مع والده داود ويستير عليه فى الحكم بين الناس.

فحدث أن جاء الخصوم عند داود فشكا الطرف الأول أن الغنم التابع للطرف الثانى قد تفلت على زرعه فأوقع فيه مفسدة عظيمة، فكان حكم سليمان أن يأخذ صاحب الزرع الغنم يستفيد من ألبانها ويأخذ صاحب الغنم الأرض حتى يصلحها وبعد إصلاها يأخذ كل طرف من الطرفين ما يخصه.

وحدث أيضًا أن تنازعت امرأتان على طفل، فأخذ يحاورهما، وفى النهاية نادى بإحضار السكين فقيل له: لماذا؟! قال: حتى أقسم الطفل نصفين نصفًا لك ونصفًا لها.

فصرخت إحداهما وقالت: لا...لا تفعل ذلك، أعطه لها، فعرف سليمان أن هذه التى صرخت هى أمه فأعطاها طفلها.

ومن المعلوم أن بيت المقدس قد هدمه «بختنصر» الذى قتل الكثير من بنى إسرائيل فجاء سليمان ﷺ وبناه من جديد.

وطلب سليمان ﷺ من ربه أن يهب له ملكًا لا ينبغى بعده لأحد من العالمين.

فاستجاب الله له وسخر له الريح تجرى بأمره وسخر له الشياطين منهم البناء والغواص ومنهم من كان سليمان ﷺ يقيده فى الأصفاد.

وعلمه الله منطق الطير، ولقد آتاه الله القوة حتى قيل: إنه كان متزوجًا بعدد كبير من النساء.

وفى يوم من الأيام أقسم ليطوفن على عدد منهن وينجب من كل واحدة منهن ولدًا يجاهد فى سبيل الله، ونسى أن يقول: إن شاء الله، فلم تحمل منهم إلا واحدة ونزل الطفل ناقص اليدين والرجلين فكلما رآه سليمان عرف ما وقع فيه من نسيان واستغفر ربه وتاب.

فى يوم من الأيام جهز سليمان جيشه للجهاد، وفى أثناء مروره سمع حديثًا عجيبًا من مخلوق صغير الحجم... إنها النملة، وهى تقول: يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون.

فتعجب سليمان من بلاغتها وحكمتها، فتبسم ضاحكًا من قولها وقال: رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ وعلى والدى وأن اعمل صالحًا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين، وعندما كان سليمان عليه السلام يجهز الخيل ويرى حركتها ويراقب سرعتها حتى فات الوقت ودخل وقت الصلاة، فتأخر سليمان عليه السلام عن أدائها فحزن لذلك وقال لجنوده: ردوها علىَّ، فلما جاءته الخيل أخذ يمسح على أعناقها وسوقها وتركها فعوضه الله عنها بخير منها وهى الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسال الله له النحاس وسخر له الجن يعمل بين يديه بأمر ربه.

وفى يوم من الأيام تفقد سليمان عليه السلام الطير فلم يجد الهدهد من بينها، فقال: ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين؟.

سوف أعذبه عذابًا شديدًا أو لأذبحنه إذا لم يكن غيابه بسبب أمر هام.

رجع الهدهد وكان فى رحلة بعيدة... إنها هناك «سبأ» ببلاد اليمن، فجاء يكلم قائده سليمان قائلاً له: لقد جئت لك بخبر هام.

لقد وجدت قومًا يسجدون للشمس من دون الله، وزعيمتهم امرأة اسمها «بلقيس» فهى ملكة عليهم، ولقد زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن سبيل الله، وأنا أتعجب كيف لا يسجدون لله الذى يخرج الحب فى الأرض وينزل الماء من السماء ويعلم ما يخفون وما يعلنون.

فقال له سلميان عليه السلام: سنرى هل أنت صادق أم كنت من الكاذبين؟.

خذ هذا الكتاب وألقه عليهم ثم اتركهم وانظر ماذا يرجعون؟.

أخذ الهدهد رسالة سليمان وطار بها إلى سبأ وألقاها حيث أُمر، فأمسكت بلقيس الكتاب وقرأت ما فيه ونادت قومها تستشيرهم فى هذا الأمر فقالت لهم: لقد أُلقى إلىَّ كتاب كريم: إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علىَّ وأتونى مسلمين، فما رأيكم؟ إنه يعرض علينا الإذعان له والخضوع فقالوا لها: نحن أصحاب بأس وقوة والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين.

فقالت لهم: سوف نختبره ونرسل إليه هدية، فإن قبلها فهو يريد المال، وإن ردها فهو نبى.

فلما جاء الرسل بالهدايا الملكية قدموها لسليمان فأبى أن يأخذها منهم.

وقال: أتمدونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم، بل أنتم بهديتكم تفرحون، ارجع إإليهم فلنأتينهم بجيش جرار لا يطيقونه، وسوف نخرجهم منها أذلة وهم صاغرون.

ولم لا فالرياح تنقل جيشه طائرًا إلى هناك، وجنوده أقوياء، وهم متنوعون من حيوانات وجن وطيور.

كانت بلقيس على درجة عالية من الذكاء والحنكة فوافقت على الإذعان لسليمان وأن تدخل تحت إمرته فقررت أن تذهب إليه.

علم سليمان بمجيء بلقيس فأراد أن يعرفها أنه نبى مرسل من الله فقال لجنوده: من يأتينى بعرشها قبل أن تأتى.

قال عفريت من الجن: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، وقال أحد شيوخ بنى إسرائيل عنده علم من الكتاب ويعلم اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، فلما رأى سليمان عليه السلام العرش مستقرًا عنده حمد الله وشكره على نعمه التى فضله بها.

ووصلت بلقيس بعد فترة من الزمن إلى سليمان فجاء النبى سليمان بعد أن أمر جنوده لأن يغيروا بعض الأشياء فى قصرها مكان بعضه الآخر، وسألها هل هذا عرشك؟.

فقالت: كأنه هو.

ثم أخذها إلى قصر زجاجي ناعم أملس وجعل الماء يجرى من تحت هذا الزجاج فلما رأت بلقيس ذلك حسبت هذا الذى رأته بحرًا فكشفت عن ساقيها، بعد أن أمرها سليمان أن تدخل، ولما وجدته زجاجًا علمت أن سليمان فعل ذلك لكى يثبت لها أنه نبى.

فقالت على الفور: رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

وقيل: إن سليمان تزوجها بعد إسلامها وإيمانها بالله وكذلك آمن قومها لإيمانها وتركوا عبادة الشمس وسجدوا لخالق الشمس، الله رب العالمين.

وبعد فترة جاء سليمان بالشياطين والجن وكان الله قد سخرهم له فأمرهم أن يعملوا فى البناء، وتكسير الأحجار وهو يراقبهم ليل نهار، حتى قبض الله روحه فمات واقفًا وعيناه مفتوحتان.

فظن الجن أنه ما زال مراقبًا لهم، فاستمروا على ذلك العمل المتواصل الصعب حتى أرسل الله دابة الأرض أكلت عصاته من أسفل، فوقع سليمان عندئذ، فعلمت الجن أنه مات ولو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين.

قصة عزير عليه السلام

أرسل الله عزيرًا عليه السلام إلى أهل قرية، كل ما فيها ومن فيها ميت، فتعجب عزير وقال: أنَّى يحيى الله هذه القرية بعد موتها.

فأراد الله أن يعلمه كيف يحيى الله الموتى فأماته مائة عام ثم بعثه وأحياه مرة أخرى فقال له الله: كم لبثت؟.

قال: لبثت يومًا أو بعض يوم.

قال له الله: بل لبثت مائة عام، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه، وانظر إلى حمارك، ذلك الهيكل العظمى كيف نجمعه ثم نكسوه باللحم، فلما تبين لعزير قدرة الله قال: أعلم أن الله على كل شىء قدير.

وذهب عزير إلى القرية فلم يعرفه أحد، فقد مات كل من كان يعرفه إلا امرأة عجوز أحضروها فدلتهم على أوصافه، فكان كما قالت بالضبط، فعرفوه ودعاهم إلى الإيمان، وذاع صيته حتى بلغ عندهم مبلغًا عظيمًا، لكن بنى إسرائيل بالغوا فى حب عزير مبالغة شديدة حتى كفروا وقالوا: عزير ابن الله.

لقد بلغت بهم درجة التقديس له حتى جعلوه ابنًا لله تعالى الله، عما يشركون، فالله واحد أحد فرد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

قال تعالى: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ .

(مريم: ٧)

بعد داود وسليمان عليهما السلام بعث الله زكريا عليه السلام نبيا لبنى إسرائيل يهديهم إلى شرع الله ويواصل معهم رسالة كل أنبياء الله الذين سبقوه ويجعلهم يستمسكون بعبادة الله الواحد الأحد ولا يغفلون عن ذكره وعن شكره!.

وزكريا عليه السلام هو زوج خالة مريم أم عيسى عليه السلام.

وهو الذى كفلها أو رباها ورعاها بعدما مات عمران أبوها، ولذلك قصة:

كانت امرأة عمران عاقرًا لا تلد... وذات يوم كانت تطعم طيورًا لديها فرأت طائرًا يضع فمه فى فم صغيره ليطعمه، ثم يضعه مرة أخرى ليسقيه، فجعلها هذا المشهد تحن للطفل وتتمنى أن يكون لديها ولد تطعمه وتسقيه... فرفعت يديها نحو السماء وراحت تدعو الله أن يرزقها بطفل، واستجاب الله لدعائها فأحست ذات يوم أنها حامل وملأها الفرح والسرور وسجدت لله شكرًا ونذرت ما فى بطنها لله (وعدت الله أن يكون وليدها خادمًا لبيت الله المقدس طوال حياته).

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (آل عمران: ٣٥) .

ووضعت زوجة عمران بنتًا فدعت الله قائلة: ﴿ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ (آل عمران: ٣٦) .

وشاءت رحمة الله أن تكون هذه المولودة الأنثى أفضل نساء العالمين، وأن تكون أمًّا لنبى يجيء ميلاده معجزة، إذ يجيء من غير أب!.

قبل أن تولد مريم كان أبوها عمران قد مات... ولأن عمران كان شيخًا جليلاً، وذو مكانة مرموقة لدى قومه فقد سابق القوم وتنافسوا من أجل أن يحوز كل منهم شرف تربية ورعاية مريم... وكان زكريا عليه السلام يرى أنه أحق الجميع بذلك فهو زوج خالتها ونبى الأمة.

وكادوا يختصمون، وحسمًا للقضية اتفقوا على إجراء القرعة فيما بينهم!.

وأجريت القرعة... وُضعت مريم على الأرض ووُضع إلى جانبها أقلام الذين يرغبون فى كفالتها، وجاءوا بطفل صغير يختار قلمًا من بين الأقلام فاختار قلم زكريا عليه السلام.

فاجتمع البعض وقال نجرى القرعة مرة أخرى... فحفر كل واحد اسمه على قلمه واتفقوا على أن يلقوا الأقلام فى النهر، ومن يسير قلمه ضد التيار يكون هو الكفيل.

فألقوا الأقلام فسارت جميعها مع التيار ما عدا قلم زكريا عليه السلام، لكنهم لم يقتنعوا، فقالوا: نلقى الأقلام فى النهر، والقلم الذى يسير وحده مع التيار يكون صاحبه هو الكفيل، فألقوا الأقلام وسارت جميعًا ضد التيار ما عدا قلم زكريا عليه السلام فسلموا بأن زكريا هو الذى يكفل مريم!.

ولأن أم مريم كانت قد نذرتها لخدمة بيت الله المقدس فقد كان لها مكان خاص بها، تعيش فيه، وكان لها محراب تتعبد فيه، وكل وقتها كان مكرسًا للصلاة وذكر الله وشكره.

وكان زكريا يزورها كل حين... وكان حين يزورها يجد عندها خيرًا كثيرًا... بل يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف.

ولما كان يسألها: من أين لك هذا يا مريم؟!.

تجيبه: هو من عند الله... يرزق من يشاء بغير حساب، فيقول زكريا عليه السلام فى نفسه: سبحان الله... قادر على كل شىء؟.

ولم يكن لزكريا ولد... فتمنى أن يكون له ولد! وسأل الله أن يرزقه طفلاً يرث النبوة والحكمة والفضل والعلم، وكل ما أنعم الله به عليه ويكون هاديًا لقومه من بعده.

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ (مريم:٣- ٦) .

ونادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب.

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ (مريم: ٧) .

وانتاب زكريا فرح شديد واضطراب فى نفس الوقت فتساءل: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ (مريم: ٨) .

وأجابته الملائكة.

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

وامتلأ قلب زكريا بالشكر لله وخر على الأرض ساجدًا يسبح بحمده وسأله أن يجعل له آية (علامة).

قال تعالى: ﴿ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ (آل عمران: ٤١).

أخبره الله بأنه ستجيء عليه ثلاثة لا يستطيع النطق فيها ولن يتكلم مع الناس إلا بالإشارة... إذا حدث له ذلك فعليه أن يتأكد بأن امرأته حامل وأن معجزة الله قد تحققت.

بعدها فوجئ زكريا يومًا عندما أراد أن يكلم الناس بأن لسانه لا ينطق فأومأ لهم أن يسبحوا الله فى الفجر والعشاء وراح هو يسبح الله فى قلبه على ما أنعم به عليه.

وما هى إلا أيام وشهور حتى ولد يحيى عليه السلام، وكان وهو طفل غريبًا ومميزًا عن كل أقرانه من الأطفال... فهو لا يلهو ولا يلعب مثلما يلهون ويلعبون، ولا يعذب الحيوانات ويثيرهم ويشاكسهم كما يفعلون... كان هادئًا طوال الوقت... يحنو على الطيور والحيوانات ويعطف عليهم... وكان كلما كبر فى السن ازداد النور فى وجهه وامتلأ قلبه بالحكمة والمعرفة وحب الله.

ولما صار صبيا صدر له الأمر الإلهى ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ (مريم: ١٢).

والكتاب هنا هو كتاب الشريعة.

رزقه الله وهو ما زال صغيرًا القدرة على فهم الشريعة والقضاء بها بين الناس.

ولما كبر زاد علمه وزادت صلته بالله، ودعوته الناس إلى التوبة من الذنوب والاستغراق فى طاعة الله وعدم عصيانه.

وعلاوة على دوره فى الدعوة إلى الحق وإلى عبادة الله كان يحيى عليه السلام ناسكًا... ينطلق فى شعاب الجبال وفى الصحراء وفى الحقول البعيدة... يمكث فيها شهورًا يعبد الله ويبكى وهو خاشع بين يديه.

وكان لا يهتم بطعامه أو شرابه... يأكل ورق الأشجار والعشب أحيانًا أو يأكل الجراد ويشرب من ماء النهر، وكان ينام فى أى مغارة يجدها فى الجبل أو أى حفرة يجدها فى الأرض.

وكان يحيى ﷺ إذا وقف بين الناس ليدعوهم إلى الله أبكاهم من الحب والخشوع وأثر فى قلوبهم بصدق مشاعره وشدة تقواه.

وقف يومًا يتحدث فى الناس... فقال: إن الله العزيز القدير أمرنى بخمس كلمات أعمل بها وآمركم أن تعملوا بها... أن تعبدوا الله بلا شريك... فمن أشرك بالله وعبد غيره فهو عبد اشتراه سيده فراح يعمل ويؤدى ثمن عمله لسيد غير سيده.

أيكم يحب أن يكون عبده كذلك؟!.

ويأمركم بالصلاة، فإن الله ينظر إلى عبده وهو يصلى ما لم يلتفت عن صلاته... فإذا صليتم فاخشعوا.

وآمركم بالصيام... فإنه مثل رجل معه «صرة» من مسك زكى الرائحة كلما سار فاحت منه رائحة المسك العطرة.

وآمركم بالصدقة... فإن مثل ذلك كمثل رجل وقع أسيرًا فى أيدى أعدائه وكادوا يقتلونه لولا أن افتدى نفسه بماله فتركوه ونجا من الموت... والصدقة كذلك تفتدى الإنسان وتخلصه من ذنوبه.

وآمركم بذكر الله كثيرًا، فإن مثل ذلك كمثل رجل طارده أعداؤه فأسرع وتحصن بحصن حصين وأعظم الحصون ذكر الله... ولا نجاة بغير هذا الحصن.

وهكذا كانت حياة نبى الله يحيى ﷺ كلها عبادة وتقوى ودعوة للطاعة واتباع الحق... وكان لا يخشى فى الله لومة لائم.

وإنسان كهذا كان لابد أن يصتدم بالحاكم الطاغية الذى لا يخشى الله ولا يردعه رادع... كان هذا الحاكم يريد الزواج من ابنة أخيه... ولما كان ذلك لا يجوز شرعًا، وكان يحيى ﷺ أمينًا على شرع الله ويدعو الناس إلى التمسك به وعدم مخالفته، لذلك رفض يحيى ﷺ أن يوافق هذا الحاكم على رغبته، وقال له بصراحة: إن ذلك لا يجوز.

وكلما كان ذلك الحاكم الطاغية يعرض الأمر على يحيى ﷺ ويطالب موافقته... كان يحيى يرفض ويعارض بشدة.

إلى أن كانت ليلة كان الحاكم ساهرًا فيها يلهو ويعربد ويشرب الخمر، ومن حوله ندماؤه وحاشيته، وأمامهم ابنة الأخ تلك (واسمها سالومى) ترقص، وفجأة توقفت عن رقصها الماجن وحدقت فى عينى الحاكم وقالت: أريد أن أطلب من مولاى شيئًا.

فقال لها: اطلبى ما شئت... كل ما تطلبينه مجاب!.

فقالت: أريد رأس يحيى!.

وكأنه كان مستغرقًا فى النوم واستيقظ مفزوعًا، فقال باضطراب:

رأس يحيى؟!... اطلبى شيئًا آخر.

فقالت: لا أريد شيئًا سواه... وإذا كنت تريد أن تتزوجنى فدونك وما تريد: رأس يحيى بن زكريا.

فنظر الحاكم إلى قائد فرسانه وقال ــ وهو يتجرع كأسًا من الخمر: فليكن ما تريد.

وذهب الفرسان وعادوا بالرأس الطاهر النبيل.. وكما قتلوا الابن قتلوا بعده الأب زكريا عليه وعلى يحيى السلام.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٢٢) .

قصة عيسى عليه السلام

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الصف: ٦).

عرفنا فى قصة زكريا ويحيى عليهما السلام أن مريم عاشت فى كفالة زكريا، وكانت لا تفارق بيت الله فى القدس الشريف إلا لحاجة شديدة، وكان زكريا عليه السلام كلما دخل عليها ليتفقد أحوالها يجد عندها رزقًا كثيرًا فيسألها: من أين لك هذا يا مريم؟.. فتجيبه: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، وكانت مريم مخلصة لله فى عبادتها...

نادتها الملائكة ذات يوم ﴿ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ (آل عمران: ٤٢، ٤٣).

وذات يوم آخر كانت خارج المسجد تقضى حاجة لها فبعث الله إليها جبريل — رسول الوحى — على هيئة رجل يرفل فى ثياب بيضاء، فلما رأته فزعت وقالت ﴿ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ (مريم: ١٨).

فقال جبريل: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴾ (مريم: ١٩).

فتعجبت مريم... كيف تلد غلامًا وهى التى لم تتزوج، قالت: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ (مريم: ٢٠).

فقال جبريل: ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ (مريم: ٢١).

ولم يستوعب عقل مريم الأمر فى بدايته... وراحت تفكر فى كلمات جبريل... ألم يقل لها: إن هذا هو أمر الله القادر على أن يقول للشىء كن فيكون... ألم يخلق الله سبحانه وتعالى آدم من غير أب أو أم، ثم ألم يخلق حواء من آدم... خلق آدم من غير ذكر وأنثى، ثم خلق حواء من ذكر بدون أنثى... ويخلق ابن مريم... على كل شىء اقتنعت مريم واستوعب عقلها الأمر وهدأت نفسها المضطربة.

ثم عاد جبريل يقول لها: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ (آل عمران: ٤٥، ٤٦).

وكانت دهشة مريم عظيمة فهى قبل أن تحمله فى بطنها وقبل أن تلده تعرف اسمه وتعرف أنه سيكون وجيها عند الله وعند الناس وتعرف أنه سيكلم الناس وهو طفل ثم وهو كبير وقبل أن تسأل مريم سؤالاً آخر رأت جبريل يرفع يده ويدفع الهواء نحوها وأحست بالنور يتسلل إلى جسدها ثم اختفى جبريل عليه السلام.

وحملت مريم كما تحمل النساء... ثم حان موعد الولادة وشعرت بآلام المخاض فخرجت من المسجد وذهبت إلى مكان بعيد ثم جلست تحت نخلة... وكانت تقول لنفسها: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴾ (مريم: ٢٣).

ولم تكد تنتهى من تمنيها الموت والنسيان حتى ناداها الوليد من تحتها: ﴿ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ۝ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ۝ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴾ (مريم: ٢٤ - ٢٦).

وحملت مريم وليدها ومضت به عائدة إلى المسجد ورأها الناس من بنى إسرائيل ولاحظوا أنها تحمل طفلاً وتضمه إلى صدرها وتمشى به فى بطء وجلال! فتعجبوا وتساءلوا بينهم وبين أنفسهم: كيف تنجب مريم وهى لم تتزوج من قبل؟!... وظنوا بها ظن السوء ولما سألوها لم تجب وأشارت إلى عيسى عليه السلام.

فتعجبوا أكثر وقالوا: ﴿ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴾ (مريم: ٢٩).

وأنطق الله عيسى وهو ما زال طفلاً رضيعًا قال: ﴿ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ۝ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ۝ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ (مريم: ٣٠ - ٣٣).

وما أن أنهى عيسى عليه السلام كلامه حتى اسودت وجوه كهنة بنى إسرائيل.

لقد شهدوا بأن أعينهم معجزة... طفل يتكلم فى مهده! وما شاهدوه كان كفيلاً بأن يصدقوه ويؤمنوا به... إلا أن الطفل كان يقول: إن الله قد آتاه الكتاب وجعله نبيا، وهذا يعنى أن سلطتهم فى طريقها إلى الانهيار، سيصبح كل كاهن منهم بلا قيمة عندما يكبر هذا الطفل... لن يستطيع واحد منهم أن يبيع الغفران للناس أو يحكمهم ويمارس السلطة عليهم عن طريق ادعائه بأنه ظل الله على الأرض، أو باعتباره الوحيد الذى يملك مفاتيح الشريعة.

ويملك أن يقول: هذا حرام وهذا حلال.

فى ذلك الوقت كان الفرق بين تعاليم موسى كما جاءت فى التوراة وتصرفات اليهود وسلوكهم كالفرق بين السماء والأرض.

شعر كهنة اليهود بالمأساة الشخصية التى جاءتهم مع ميلاد هذا الطفل الذى يعنى مجرد مجيئه إعادة الناس إلى عبادة الله وحده، كما يعنى إعدام الديانة اليهودية التى يدعون أنهم يمثلونها وهم فى الواقع يسلبون الناس أموالهم باسمها.

وتكتم كهنة اليهود قصة ميلاد عيسى وكلامه فى المهد واتهموا مريم ببهتان عظيم.

والتقت مصلحة كهنة اليهود مع مصلحة الطاغية الرومانى الذى كان يحكم الناس فى فلسطين بالحديد والنار، وكان لا يؤمن بالله.

فما أن سمع بقصة الطفل الذى ولد بغير أب وتكلم فى المهد معلنًا أنه نبى الله، حتى شعر بالقرع وبقرب وقوع زلزال يزلزل عرشه، فراح يخطط مع مستشاريه للتخلص من هذا الطفل.

ومضت الأيام وسنة وراء سنة وأصبح الطفل صبيًّا وأوحى الله إلى أمه أن تهرب به إلى مصر، ولم ترجع إلى الأرض المقدسة فى فلسطين إلا بعد أن مات الحاكم الرومانى (هيرودس) وشب عيسى ﷺ فى بيت المقدس وآتاه الله العلم والحكمة وراح يجوب طرقاتها ويجتمع بالناس ليهديهم إلى الله وإلى طريق الحق الذى كانوا قد ابتعدوا عنه وتحمل فى سبيل ذلك أذى كثير على أيدى اليهود الذين كذبوه واتهموه بالضلال.

لكنه واصل المسيرة صابرًا على البلاء شاكرًا لله الذى أمده بالآيات وزوده بالمعجزات وجعله يحيى الموتى بإذنه، ويعيد البصر للأعمى بإذنه، ويشفى الأبرص بإذنه، ويخلق من الطين كهيئة الطير، وينفخ فيه فيكون طيرًا بإذنه سبحانه وتعالى.

وكل هذا لم يجعل اليهود يؤمنوا به كرسول من عند الله أتاهم ليهديهم إلى سبيل الحق والرشاد الذى بعدوا عنه... اتهموه بالسحر... بأنه ساحر.

وزاد تآمرهم عليه وسعيهم الحثيث من أجل قتله، ولكن الله كان دائمًا إلى جانبه ينجيه ولم يمكنهم منه، واستمر عيسى ﷺ يدعو الناس إلى الله ويطوف بدعوته فى كل قرى فلسطين ومعه الحواريون (وهم الذين آمنوا بدعوته أصدق الإيمان).

كان الحواريون معه يحزنون لحزنه ويفرحون لفرحه ويتحملون معه الأذى ويعانون مثله من الجوع والعطش، إلى أن كان ذات يوم وكان عيسى ﷺ مع حوارييه

فى إحدى جولاته التى يدعو فيها إلى الله وكانوا صائمين ويمشون فى صحراء مقفرة فسألوا عيسى ﷺ ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾.

فقال لهم متعجبًا: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (المائدة: ١١٢) ولا تطلبوا مثل هذا وإلا تكون فتنة لكم.. ألم يكفكم ما أجراه الله على يدىَّ من معجزات؟!.

فقالوا له: نحن نؤمن بك واشهد بأننا مسلمون، ولكننا نريدها لنأكل منها فتطمئن قلوبنا ويزداد يقيننا.

فدعا عيسى ﷺ ربه قائلاً: ﴿ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ (المائدة: ١١٤).

واستجاب الله لدعاء نبيه وأنزل عليهم مائدة فيها خير وفير وطعام لذيذ!.

فأكلوا وشربوا وشكروا الله كثيرًا.

وعلم الناس بهذه المعجزة فآمن بعيسى وبرسالته عدد كبير منهم... كما ازداد إيمان الحواريين بقدرة الله سبحانه وتعالى.

ولما كثر أتباع عيسى ﷺ زادت خشية اليهود على سلطانهم وزادت خشية كهنتهم على سلطتهم الدينية فازداد تآمرهم وتدبيرهم من أجل الخلاص منه ومن دعوته... وهمسوا فى أذن الحاكم الرومانى الذى يحكم البلاد بأن وجود عيسى وبقائه حيًّا فيه زوال لحكمه وتقويض لسطانه فأصدر أوامره بالبحث عنه وإلقاء القبض عليه من أجل محاكمته.

من ناحية أخرى كان اليهود قد وظفوا سلاح المال والرشوة لإغراء الناس بالبحث عنه والإبلاغ عن مكان وجوده.

وجاءهم (يهوذا) ليقبض المال ويدلهم على مكانه! وفرح اليهود وذهبوا إلى الحاكم ليبعث معهم جنوده ليقبضوا على عيسى ﷺ.

ووصلوا إلى مكانه ودخلوا عليه ولكن الله أعمى بصائرهم فلم يروه وهو أمامهم... ثم رآه (يهوذا) وهو يصعد إلى السماء.

فراح يصرخ مشيرًا إليه، فى تلك اللحظة ألقى الله شبه عيسى على يهوذا فظنه الجنود عيسى فأمسكوا به وأخذوه وصلبوه، فى حين كان عيسى ﷺ قد صعد إلى السماء وسلم من أذاهم!.

قال تعالى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ١٥٧، ١٥٨).